الشيخ نعيم قاسم

سبيل الله تعالى

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ



دار المحجة البيضاء


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

سبيل الله تعالى

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ


بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ نعيم قاسم

سبيل الله تعالى

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

المحتوى

الفصل الثالث
جهادُ النَّفس والعدو

الفصل الرابع
الشهادة والحياة

الفصل الخامس
الدِّين خلاصُ الإنسانية

الإهداء

إلى من اختبرَ التجارب الإنسانية وعَاينَ فشلها.

وإلى من يريـد الحقيقـة للوصول إلى السعادة.

وإلى جيـل الشباب بحثاً عن الخيار الأصوب.

وإلى المؤمنين بهذا السبيل سعياً إلى الارتقاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله واهب الحياة وهادي العباد، والصلاة والسلام على محمد ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آل بيته حَمَلة الأمانة الطيبين الطاهرين، وعلى الأصحاب الدعاة إلى الله تعالى، وعلى كل الذين أضاؤوا الطريق بجهادهم وتضحياتهم.

سخَّر الله تعالى للإنسان كلَّ مقومات سعادته، فخلقه في أحسن تقويم، وفَطَرَهُ فِطْرَةً لا تبديل لها تتفاعل مع الخير والصلاح، ووهبه العقل الذي يميِّز من خلاله ويختار، وحدَّد له أَجَلاً في هذه الدنيا يُتيح له فيه ترصيد أعماله ليوم الحساب، وفتح له باب التوبة والاستغفار ليقوِّم اعوجاج نفسه وأخطائه، وأرسل الأنبياء والرسل للتعليم والتزكية والإرشاد إلى طريق الهداية، وختم بسيد البشرية محمد ﷺ بأعظم وأكمل وأتم النِعَم، الذكر المحفوظ القرآن الكريم، والعترة الطاهرة القدوة القائدة.

ارتأينا في هذا الكتاب أن نخطو مع بداية الطريق خطواتٍ

أساسية تشكِّل المنطلق للاختيار، بين سبيل الله والسُبُل الأخرى، فكان الفصل الأول الذي يُبيِّن أنَّ التعاليم الإلهية تتمحور حول الإنسان، لترشده إلى طريق سعادته، وتدله إلى ما يوصله إلى النعيم الأبدي الخالد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين، وهي السبيل إلى الله تعالى، التي إذا ما اختارها الإنسان باعتقادٍ وعقل فاز بالدارين، وإذا ما انحرف أو ضلَّ عنها خسر فيهما. ولكل خيارٍ مواصفاتٌ تظهر بوضوح من خلال السلوك، ما يجعلنا أمام نموذج المهتدين إلى سبيل الله، والضالين عن سبيله، في تمايزٍ واضحٍ بين السبيلين.

يحتاج اتِّباع سبيل الله إلى جهدٍ وكدحٍ وصبر، فالدنيا دار بلاء، لكنْ على الإنسان أن يلتفت إلى النِعَم التي لا تحصى قبل أن ينظر إلى البلاء والامتحان، عندها يتوازن بمعرفته لطبيعة البلاء ووظيفته، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾، فيحصل على نتائج الصبر في الدنيا، بأن يرى الخير فيما أصابه من خيرٍ أو شر، متأسياً بالأنبياء والأئمة الذين ارتقوا أعلى الدرجات بصبرهم وجهادهم في سبيل الله تعالى، وهذا ما وضَّحناه في الفصل الثاني.

إنَّ النفس الإنسانية هي الركيزة الأساس لكل الخطوات، لذا اهتم الإسلام بتهذيبها وتزكيتها لتنقاد إلى صاحبها بدل أن تقوده إلى الهاوية، في مقابل ما تروِّج له القوى الشيطانية لترغيبها بملذاتِ ومغرياتِ الدنيا، كي تغرق في اللحظة المادية المعاشة ما يشكِّل

حاجزاً أمام سُموِّها ومستقبلها الدائم. لذا اهتمينا في الفصل الثالث بالحديث عن جهاد النفس والعدو، بتفصيلِ معنى الجهاد بقسميه، وكيفية تربية النفس لتقوى على الجهاد، وبذلك تكون فائزة بتزكيتها، ويكون مالكها منصوراً على الأعداء كيفما كانت النتائج، ففوزها يكون بطاعة الله والسير في سبيله، ونصرُ صاحبها يكون بأداءِ التكليف على خطى الإيمان بالله تعالى.

ثم أفردنا فصلاً كاملاً هو الفصل الرابع، للحديث عن الشهادة والحياة، لنُبيِّن بالدليل والتحليل، أنَّ التربية على الشهادة حالةٌ ايمانية تمنح القوة والاستعداد للتضحية، عندما يتطلَّب الموقف ذلك، وهذا ما يشمل الرجل والمرأة كلٌ بحسب دوره، وأنَّ الشهادة خيارٌ دفاعيٌ فعَّال في مواجهة القوى المادية المسيطرة والمعتدية، على أنَّ الهدف الأساس هو اتِّباعُ سبيل الله تعالى، الذي له مستلزماته في الدفاع عنه، ما يؤدي إلى إحدى الحسنين: الشهادة أو النصر، وفي الحالتين يفوز المؤمنون. ولا يستسهلنَّ أحدٌ اختيار طريق الشهادة، فالأمر يحتاج إلى إذن الولي الفقيه للجهاد والقتال، ويتطلب التزاماً بأخلاقيات القتال، وبالعهود والمواثيق، كل ذلك في إطارٍ دفاعي مشروع، ما يُظهر عظمة التعاليم الإسلامية، التي ترشدنا إلى الحياة السعيدة والعزيزة والمستقلة، إنَّها ثقافة الحياة الحقيقية لمصلحة الإنسان في هذه الدنيا.

لنصل إلى الفصل الخامس، فنستنتج بأنَّ الدِّين خلاصُ الإنسانية، وقد أخبرنا الله تعالى عن سبب إرسال خاتم الرسل

محمد ﷺ فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾. نحن مسؤولون عن إقامة الدين في حياتنا، غير آبهين بالحواجز المصطنعة، فالدين عابرٌ للأوطان والقوميات والشعوب، وهو يتعاطى مع الإنسان في حياته ومنهجه متعايشاً مع كل الظروف وفي كل الأزمان. وقد أكرمنا الله تعالى بتجربةٍ غنيةٍ تجسدت بالمقاومة الإسلامية في لبنان، كنموذج من التفاعل الإنساني في سلوك سبيل الله تعالى، ما أدَّى إلى نصرٍ وخيرٍ كبيرين للوطن والأمة والإنسانية.

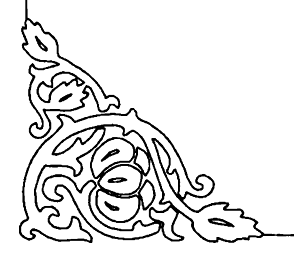
﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فابدأ باختيارها، واشكر النِعَم، واصبر على البلاء، وجاهد نفسك وعدوك، فالحياة الحقيقية بطاعة الله تعالى وسيطرتك على هواك، وبعزِّك منتصراً على الأعداء أو شهيداً، وأقم الدِّين تعش سعيداً في الدنيا، ثم تحصل على ثواب الآخرة من الخالق العلي القدير.

٤ محرم ١٤٣١هـ
٢١/ ١٢/ ٢٠٠٩م

نعيم قاسم

الفصل الأول

سبيلُ الله تعالى



الإنسانُ والعقل

خلق الله تعالى الكون والحياة والإنسان، وأخضعَ هذا الخلق لنظامٍ دقيق وقوانين ثابتة، يشهدُ على ذلك كلُّ ما يحيط بنا، كدورةِ الأرض حول الشمس، وتعاقب الليل والنهار، ونظامِ الزوجية والتكاثر في كل المخلوقات الحيَّة، ومراحل تكوين الإنسان إلى اكتماله مخلوقاً في أحسن تقويم، ولا نحتاج إلى تحليلاتٍ ودراسات لإثبات خلق الله لمخلوقاته، فهذا واضحٌ بالوجدان، كالشمسِ التي لا تحتاج إلى دليل إضاءتها وهي تشعُّ علينا في كل يوم، ومع ذلك فإنَّ عقلنا يدلنا على الخالق جلَّ وعلا بقانون العلَّة والمعلول، أو السبب والمسبِّب، فالمخلوقات لها خالق، يدلُّ على ذلك المثال البسيط والعميق الذي أثبت من خلاله الاعرابي وجود الخالق من خلال مخلوقاته بقوله: «**البعرة تدلُّ على البعير، وأثرُ الأقدام يدل على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فجاج، لا تدلَّان على اللطيف الخبير**»[1].

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٦، ص: ١٣٤.

يختلفُ الإنسان عن باقي المخلوقات بالعقل والاختيار، فالحيواناتُ غير عاقلة، وإنَّما تهتدي إلى تصرفاتها فطرياً بغرائزها، فلا إبداع عندها، ولا تبني حضارة أو مدنية، وإنما تكرِّر سلوك من سبقها منذ آلاف السنين من دون أي تعديل، فخلية النحل تتقن مملكتها وتنتج عسلها بطريقة منظمة ودقيقة، كما فطرها الله تعالى على ذلك من دون تعديل أو تطوير أو تجاوز للنمطية في أدائها، والعصافير تبني أعشاشها بهدي غرائزها التي أودعها الله تعالى فيها، فهي تتصرف بطريقة غريزية لا عقلية. أمَّا الإنسان فهو عاقلٌ، يفكِّرُ ويُبدع، ويُنشئ الحضارة والمدنية، ويطوِّر حياته، ويكتشف أسرارها ومفاتيح الضعف والقوة فيها، فهو يتصرَّف بما يمليه عليه عقلُه، أي بطريقة عقلية لا غريزية.

الطريقة الغريزية تُحاصِرُ الحيوانات في تلبيتها لحاجاتها العضوية المادية كالطعام والشراب، ومتطلبات غرائزها في إطار حب البقاء، ما يجعل اختيارها لمتطلبات هذه الحاجات والغرائز بأنماط متشابهة لكل جنس من أجناسها، بحيث تكون تصرفاتها آلية وروتينية محدَّدة.

أما الطريقة العقلية عند الإنسان، فهي تطبع حياته بدائرة واسعة من الخيارات، فيتحكَّم بكيفية تلبية حاجاته العضوية، بحيث يختار كمية ونوعية الطعام الذي يريده، ويتناوله بأساليب مختلفة، ويتحكَّم باندفاعه نحو غرائزه فيضع ضوابطها أو يطلق لها العنان، فهو مختارٌ

فيما يفعل، ولا يتصرف آلياً أو روتينياً، وبهذا نلمس أثر الطريقة العقلية في التحكُّم بالاختيار.

ولا صحة لنظرية داروين عن أصل الأنواع في أنها مترابطة ومتسلسلة من بعضها، وأنَّها قد تطورت عبر الزمن إلى القرد ثم إلى الإنسان، فهو لم يثبت نظريته علمياً، وإنما رَسَمَ صوراً لمجموعة من الحيوانات ورتَّبها بتقارب أشكالها وصفاتها، ليستنتج بأن كل شكلٍ قد تطوَّر من الشكل الذي قبله، من دون أي دليل علمي يقيني على وجود هذا الترابط، لذا لم تتحوَّل هذه النظرية إلى حقيقة علمية أبداً، بل تُثبتُ الحقيقة العلمية وجود خصائص لكل مخلوق بشكل مستقل، كما كانت منذ بدء الخليقة، ولم يتطور إلى مخلوق آخر، فالدودة دودة، والعصفور عصفور، والقرد قرد، والإنسان إنسان. وقد أثبت العلم الحديث وجود الجينات الوراثية الثابتة والمستقرة، التي تحدِّد جنس المخلوق وتُميِّزه عن المخلوقات الأخرى، وكل الأبحاث الحديثة قائمة على رفض نظرية داروين، وأصالة واستقلالية وجود كل مخلوق بذاته.

خلق الله تعالى الإنسان على فطرة العقل والاختيار، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وأودع فيه قابلية توجيه حاجاته العضوية وغرائزه نحو الصلاح والسعادة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الحقيقية، أو توجيهها نحو الفساد والشقاء، ولم يوجهه بطريقة آلية إلزامية في اختيار سلوكه في الحياة، فله خيارات الشكر والإيمان أو الكفران والشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

لم يترك الله تعالى مخلوقه الإنساني للضياع، بل أرسل له الأنبياء والرسل ليبيِّنوا له الفروقات بين الصلاح والفساد، كي يتعرَّف الإنسان على الحقيقة المطلقة من خالقه الأعلم بما خلق، ثم يختار ويتحمَّل مسؤولية خياراته. هكذا أراد الله تعالى الحياة في هذا الكون، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]، فأوجد مخلوقات حيوانية تسيِّرها غرائزها، وأوجد مخلوقاً إنسانياً يختار بعقله ويتحمل مسؤوليته.

الإيمان بالله تعالى، كخالق للحياة، وصاحب السلطة الوحيدة المطلقة على الكون والكائنات، قاسمٌ مشتركٌ في دعوة الأنبياء والرسل، وقد تنوَّعت وتعدَّدت رسالات الأنبياء بحسب حاجات البشر الذين أُرسلوا إليهم، وطرحت السبيل الأصلح لبناء العلاقات الثلاثة للإنسان: مع ربه ونفسه ومجتمعه، وكلمَّا ازداد النسلُ البشري وتقدَّم العقلُ الإنساني توسَّعت دائرة التشريع لتلبِّي متطلبات الإنسان في شؤونه المختلفة. وبما أنَّ الله الخالقَ واحدٌ

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٨.

أحد، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[١]، فالدِّينُ واحد، وسبيلُ الله تعالى واحد، وما رسالات الرسل والأنبياء إلَّا خطواتٌ لهذا الدِّين، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢].

ختم الله الدينَ في مرحلته الأخيرة التي شملت الرسالات السماوية السابقة على يد محمد ﷺ، فضمَّ منها ما أراد استمراره، وعدَّل ما أراد تغييره، وأتمّه بما أوصله إلى كماله، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[٣].

أعلمنا الله تعالى في كل الرسالات السماوية بوجود الحياة الآخرة بعد الموت، حيث يجتمع كل البشر في يوم القيامة، ليحاسبهم على ما عملوه في الدنيا، فالله تعالى لم يخلق الحياة عبثاً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[٤]، وهو العادل الذي يكافئ المحسن ويعاقب المسيء، قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ

(١) سورة الإخلاص، الآية ١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٣٨.

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[١]، وهـذا ما ينسجم مع الاختيار البشري، الذي يتطلب حوافزَ تشجيعٍ للصلاح وتحذيرٍ من الفساد، بتبيان ما يؤدي إليه كل منهما، فثواب الجنة للصالحين، وعقاب جهنم للفاسدين.

الإنسان مخيَّرٌ ومسؤول، وعليه أن يحسب نتائج أعماله وخياراته في الدنيا والآخرة، وبما أنَّ البداية ترتبط بالسبيل الذي يختاره، عليه أن يحسم خياره بين سبيل الله والسُّبُل الأخرى، وأن يفهم أهدافها ونتائجها، فقد أعطاه الله تعالى العقل ليختار، فلا عُذر له إذا ما قلَّد آباءه وأجداده تقليداً أعمى، كما كان يحتج الضالون، ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]، وعليه أن لا يتعصب بما يقف حاجزاً أمام فطرته التي تفتح أمامه الآفاق للاختيار، فالطريقان أمامه، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٣]، وباستطاعته أن يختار الطريق السليم، وأن لا ينساق مع أهوائه وغرائزه ولذَّاته التي تُسقطه في الهاوية، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٤].

على الإنسان أن يتأمل ويفكر، ماذا يريد؟

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٨٧ و ٨٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

(٣) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

بالتأكيد، يريد سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، لكن كيف يحصل عليهما؟

هل يختار ما وصل إليه العقل البشري الناقص من مشروعٍ للحياة، أم ما أوحاه الله تعالى عبر أنبيائه

ورسله؟

هل يكون خياره إلهياً أو بشرياً؟

نحن لا نريد تبسيط طريق الحياة، لكنَّ الإجابة عن هذه الأسئلة تحسم البداية، ثم تأتي التفاصيل التي تحدِّد معالم الطريق.

الخيار الإلهي يعني اختيار سبيل الله، والخيارات الأخرى البشرية تعني سبيل غير الله. قد يعترض البعض على هذه الحدَّية في التصنيف، لكنَّ الواقع يؤكد بأنَّ البداية هي التي تحدِّد المسار والنهاية، فلنتفق على الخطوة الأولى، خطوة الاختيار الكبرى، خطوة الاعتقاد والمنطلق، هل نريد سبيل الله أم سبيل غير الله؟ فلنتابع معاً ما يوصلنا إليه كلُّ سبيل، ويتوضَّح لنا من خلال التفاصيل معنى هذا التقسيم بين السبيلين.

سبيل الله تعالى

سبيلُ الله مسارٌ لتطبيق تعاليم الدين في حياة البشر، وبحسب الفهم الإسلامي، لا يقتصر الدين على علاقة المخلوق بربِّه من خلال العبادات والدعاء، وإنما يشمل علاقة الإنسان بنفسه لتقويمها

وتهذيبها، لتمتنع عن المحرمات، وتجافي هوى النفس، وتسمو في أدائها وسلوكها وأخلاقيتها، بما يرقى بالبعد الإنساني نحو الكمال، ويشمل أيضاً علاقة الإنسان بمجتمعه في تنظيم الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمعاملات المختلفة، ومسائل الحرب والسلم، والحكم بما أنزل الله تعالى في قوانين الدولة والمجتمع.

سبيلُ الله رؤيةٌ كاملة لكل نواحي الحياة، وقواعد محدَّدة ترسم طريقاً مستقيماً يوصل إلى مرضاة الله تعالى، وينسجم مع استقرار وسعادة ونجاح الإنسان في الحياة. عن ابن مسعود: «**خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال ﷺ: هذا سبيلُ الله مستقيماً. ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيلٌ إلَّا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾»[1].

فالسبلُ الأخرى تبتعد نسبياً عن سبيل الله تعالى، قد يكون بُعدها محدوداً، وقد يكون كبيراً جداً، لكنَّه في كل الأحوال لن يكون سبيلاً صافياً لله تعالى، بل يمكن القول بأنَّه سبيلٌ أقرب أو أبعد من سبيل الله تعالى. وحيث أخرجه تمايزه عن سبيل الله، فهو سبيلٌ لغير الله تعالى، وبما أنَّ السبل الأخرى تتفاوت في نظرتها ورؤيتها، فقد أشار الحديث إلى وجود شيطان لكل سبيل يدعو إليه، وهذا تعبيرٌ عن الاختلاف الموجود بين السبل الأخرى أيضاً.

---

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص: ٢٨١٧.

جاء رسول الله ﷺ ليحسم الجدل، فسبيلُ الله تعالى واحدة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١)، حيث أكدَّ كما في نهاية الآية على أنه ليس من المشركين، فهو لا يُضيفُ إلى سبيل الله ما ليس فيه، ولا يُنقِصُ منه شيئاً، بل يختاره كما جاء من عند الله تعالى، وبذلك لا يشرك مع الله أحداً في المنهج والسلوك، في العقيدة والشريعة.

الرسول ﷺ بابُ المعرفة والوصول إلى سبيل الله تعالى، وسلوك طريق الطاعة، والعمل وفق تعاليم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾(٢)، وهو القدوة الذي يُرشد بقوله وفعله وتقريره إلى الاستقامة والصلاح، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣). وقد أخبرنا عن دور وأهمية العترة الطاهرة من أهل البيت المعصومين عليهم السلام، فهم والقرآن صنوان متلازمان، فالقرآن يُبيِّن لنا التعاليم الإلهية، والرسول وأهل بيته الأطهار يطبقونها، ويقوموا الاعوجاج الناشئ عن العمل بها، ويفسروا ويأولوا ما خفي معناه، ويوضحوا تفاصيلها التي يحتاجها المؤمنون، فهم السبيل إلى تمام النعمة بالهداية وتطبيق دين الله تعالى.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة الحشر، من الآية: ٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إني أوشك أن أدعي فأجيب، وإني تاركٌ فيكم الثقلين، كتاب الله عز وجل وعترتي، كتاب الله حبل ممدود بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنَّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض، فانظروا بماذا تخلفوني فيهما**»[1].

أهلُ البيت هم العترةُ الطاهرة الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس، وعصمهم من الذنب والخطأ والسهو والنسيان، وهم الصادقون في كل شيء، والمطهَّرون من عند الله تعالى، وقد حدثنا الله تعالى عن طليعتهم، الذين ضمَّهم رسول الله ﷺ معه تحت الكساء، فهم أهل الكساء الخمسة المعصومين: النبي ﷺ، وعلي عليه السلام، وفاطمة عليها السلام، والحسن عليه السلام، والحسين عليه السلام، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

وتتالت الروايات عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، تُحدثنا عن أسماء أهل البيت المعصومين الذين تسلموا الإمامة بعد النبي ﷺ واحداً بعد الآخر، نذكر في هذا المقام رواية واحدة عن سلمان

---

(١) وردت الرواية في كتب السنة والشيعة باختلافٍ طفيف: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص: ٢٣٥./ النسائي، السنن الكبرى، ج٥، ص: ٤٥./ الطبراني، المعجم الأوسط، ج٣، ص: ٣٧٤./ المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص: ١٧٢.

(٢) سورة الأحزاب، من الآية: ٣٣.

الفارسي(رض) قال: دخلت على النبي ﷺ فإذا بالحسين عليه السلام على فخذه، وهو يقبِّل عينيه ويلثم فاه ويقول: «**أنت سيد ابن سيد، ابن إمام، أخو إمام، أبو أئمة، أنت حجة الله وابن حجته، وأبو حجج تسعة، من صلبك تاسعهم قائمهم**»[1]. وقد نص كل إمام على الذي يليه من بعده، ليتسلم الإمامة، ويكون ولياً للمسلمين في زمانه:

١ ـ أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣ ـ الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

٤ ـ علي بن الحسين عليه السلام (زين العابدين).

٥ ـ محمد بن علي عليه السلام (الباقر).

٦ ـ جعفر بن محمد عليه السلام (الصادق).

٧ ـ موسى بن جعفر عليه السلام (الكاظم).

٨ ـ علي بن موسى عليه السلام (الرضا).

٩ ـ محمد بن علي عليه السلام (الجواد).

١٠ ـ علي بن محمد عليه السلام (الهادي).

١١ ـ الحسن بن علي عليه السلام (العسكري).

١٢ ـ محمد بن الحسن عليه السلام (المهدي (عج)).

أول الأئمة عليهم السلام علي عليه السلام، ثم ولداه الحسن فالحسين، ثم

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص: ٢٦٢.

الأئمة التسعة من ولد الإمام الحسين عليه السلام يتسلم كل إمام عن أبيه، إلى خاتم الأئمة الثاني عشر الإمام المهدي(عج)، الذي غاب عن الأنظار في سنة ٣٢٩ هـ، ثم يظهر في يوم من الأيام في آخر الزمان ليكون الولي القائد للأمة، وبذلك تكون الساحة قد فرغت من قيادتها المعصومة الظاهرة منذ سنة ٣٢٩هـ. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقاً وخُلقاً، تكون له غيبةٌ وحيرة، تضلُّ فيها الأمم، ثمَّ يُقبل كالشهاب الثاقب، يملؤها عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً**»[(١)].

لأهل البيت دورٌ أساس في تعليم وحماية وقيادة المشروع الإسلامي، فهم أحد الثقلين الذي له قيمةٌ كبيرة، إلى جانب الثِقل الآخر وهو القرآن الكريم، وهذان الثقلان لن يفترقا في الدنيا أبداً، ما يجعل دور أهل البيت عليهم السلام دوراً مركزياً بعد النبي صلى الله عليه وآله، ولا إمكانية للمحافظة على أصالة واستقامة المشروع الإسلامي من دون الاقتداء بهم. وقد حصلت في التاريخ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أحداثٌ كثيرة، كاد بعضها أن يودي بصفاء وسلامة التعاليم الإسلامية، وأن يشوِّه معانيها ويحرفها عن أهدافها، كما نشأت فرقٌ وجماعات ابتعدت كثيراً عن الإسلام رغم شعاراتها الإسلامي، فكان دور أهل البيت عليهم السلام كاشفاً للحقائق، ومُسقِطاً للبدع، ومحدداً لمعالم الطريق، وحافظاً لأصالة الإسلام.

---

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص: ٢٨٦.

إنَّ الثروة الحديثية التي حصلنا عليها من روايات أهل البيت عليهم السلام مصدرُ غنىً كبير لاكتمال البنيان الإسلامي العقيدي والتشريعي، كما أن السلوك العملي للأئمة الاطهار في مواجهة فساد الحكام وتحديهم، وفي محاورة الزنادقة وأصحاب البدع والمنحرفين، والتضحيات الجسام التي قدَّموها وأدَّت بهم إلى السجن ودس السم والشهادة، كل ذلك حفظ لنا الإسلام المحمدي الأصيل. من هنا نفهم معنى: أنهما لن يفترقا، وهذا شكلٌ من أشكال حفظ الذكر، فالقرآن الكريم محفوظ من التحريف إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1]، وعترة أهل البيت عليهم السلام طريق الحفظ العملي لتعاليم القرآن الكريم.

يركز الإسلام على علاقة الحب والمودة بين المؤمن وخالقه، وبين المؤمن والنبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، بحيث لا تقتصر الطاعة في سبيل الله تعالى على الالتزام الجامد بتطبيق أوامر الأعلى إلى الأدنى، بل تكون مجبولةً بالحب لتختفي الآمرية، ويحلُّ محلَّها التفاعلُ والعشقُ والذوبان في سموِّ الإنسان بروحه، لينسابَ سلوكُه من دون تكلُّفٍ أو طمعٍ أو خوف، ما يوصله إلى أرقى أشكال العبادة التي تعطي أفضل الآثار في حياة الإنسان.

هذا الحب ليس من جهة واحدة، بل هو حبٌّ متبادلٌ بين الخالق والمخلوق، وهنا تكمن أهميته، يصف تعالى اختياره

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

للمؤمنين الصادقين الأوفياء بأنَّه مبنيٌ على الالتزام بالإسلام في إطار الحب المتبادل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، ويعبِّر الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة عن أهمية هذا الحب بحديثه عن الصفقة الخاسرة من دونه: «**عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقةُ عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيبا**»[٢].

يؤدي حبُّ الله تعالى إلى تنفيذ أوامره بقناعة وأُنْس، ولا يكفي في الحب أن يكون عاطفةٌ متأججة من دون آثار عملية، فالدليل على حب الله تعالى هو إتِّباع أوامر الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

ويجب أن يمتدَّ الحبُّ إلى أهل البيت عليهم السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يؤمن أحدُكُم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذريتي أحب إليه من ذريته**»[٤]. فالحبُّ دعامةُ الإيمان، مشفوعاً بالعمل بتوجيهاتهم ومواقفهم، وعندما طلب منَّا الله تعالى متحدثاً عن النبي صلى الله عليه وآله بالمودة في القربى، إنما عنى هذا المعنى من الحب الذي لا يقتصر على

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٥، ص: ٢٢٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص: ٤١.

المشاعر، روي عن ابن عباس: «**قال رسول الله ﷺ: لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى: أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي**»(١).

إذاً، السلسلة مترابطة ومتناغمة، فالطاعة لله ولرسوله وللأئمة الأطهار، والحب لله ولرسوله وللأئمة الأطهار، والانقياد والولاية لله ولرسوله وللأئمة الأطهار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(٢).

المهتدون إلى سبيل الله

يُقيِّد سبيلُ الله المؤمنين بضوابط يلتزمون بها، فلا يتيح لهم الإيمان ليفعلوا ما يشاؤون، فقد التزموا السير على طريق محدَّدة، فيها الإيمان والاستقامة، وهذا ما يجب أن يطبع كلَّ حياتهم، من ضمن توجيهات الإسلام المنسجمة مع بعضها، في منظومة شاملة متكاملة، ترقى بالانسان الى الكمال. نعرض منها:

١ ـ **أعمال الخير والصلاح**: يشمل سبيلُ الله كلَّ خير وصلاح، ويتسِّع لكل مسؤولية يؤديها الإنسان، ويتضمن كل سلوك إيجابي ومطلوب من المؤمنين. رأى جمع من صحابة رسول الله ﷺ رجلاً قوياً يعمل في الأرض، فقال بعضهم لرسول الله ﷺ: لو كان هذا في سبيل الله. فقال الرسول ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولْدِه صغاراً**

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج٦، ص: ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يَعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»[1].

٢ ـ **كلمة الله هي العُليا**: لا مجال للحيرة عمن يكون في سبيل الله ومن لا يكون كذلك، فالقاعدة واضحة، من عمل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله، وهذا مرتبط بالهدف، فلو قاتل شخص جماعة ليحصل على المكاسب الشخصية وليس من أجل القضية، فهدفه صغير وشخصي لا يمكن وضعه في مصاف سبيل الله، علماً بأنَّ القتال من أجل قضية، كالتحرير وطرد العدو، يتضمن في نتائجه فوائد شخصية، لكنَّها لا تكون الهدف الأساس. روي أنَّ رجلاً أعرابياً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليَرى مكانَه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2].

٣ ـ **السلوك**: يريد الإسلام تربيتنا على السلوك والجوهر لا على المظاهر والشكليات، وبالتالي فإنَّ لياقة الإنسان ومظهره الخارجي لا يعفيه من بناء روحيته الجيدة وأخلاقيته الحسنة، فكم

---

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص: ٣٤١٥.
(٢) مسند أحمد، ج٤، ص: ٤٠٢.

من الناس يُظهرون العفاف وهم غير ذلك، ويبرزون الاستقامة وهم منحرفون، ويدَّعون الإيمان وهم منافقون، ويكتفون بالسهل من مظاهر الدين ولا يلتزمون بجوهره، وهذا ما لا يعفيهم من مسؤوليتهم، فالأفضلية دائماً للسلوك والإيمان الحقيقيين لا للمظاهر والشكليات. رُوي أن أمير المؤمنين علي عليه السلام عرض على العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وعمه أن يُهاجر من مكة على المدينة، فأجابه العباس بأن له عمارة المسجد الحرام بمتابعة شؤونه وإصلاحه، وسقاية الحجيج الذين يَرِدُون مكة المكرمة إلى الكعبة الشريفة، وهذا أفضل من أي عمل آخر، فنزلت الآية الكريمة لتقارن بين أمير المؤمنين علي عليه السلام المجاهد في سبيل الله والعباس الذي تعلَّق بالمظاهر آنذاك، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[1].

٤ ـ **العدل**: يأمر الله تعالى بالعدل بين الناس، لتكتمل منظومة الحياة البشرية على الصعيد الاجتماعي في إطار إحقاق الحق وحماية أصحابه، ويأمر بالتعامل العام في إطار الإحسان والعطاء، فاليد الخيِّرة أفضل من اليد التي تقايض الشيء بالشيء، ولكن منظومة الحياة لا تستقيم إن لم يكن هناك نهي عن الفحشاء والمنكر والبغي،

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٩ و ٢٠.

تلك الآفات التي تخرِّب الاجتماع الإنساني، ونحن بحاجة دائماً للعمل على مواجهتها حماية للجيل الناشئ، وحماية لجماعة المسلمين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

٥ ـ **قواعد في الاقتصاد:** وضع الإسلام القواعد لبناء اقتصاد سليم ومتوازن، فأحلَّ البيع بتفاصيل بيَّنتها الروايات عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، وقد أفرد الفقهاء لبحث البيع في كتاب المعاملات مئات المسائل التي تجيب عن أسئلة كثيرة، في التجارة والصناعة والزراعة والمعاملات الاقتصادية المختلفة، وحرَّم الربا معبِّراً عن المتعاملين به وكأنَّه أصابهم مسٌّ من الشيطان، لما فيه من أضرار بالغة على الدائن والمدين والمجتمع. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢).

ورفض التلاعب بالميزان أثناء الكيل، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

﴿وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1]. فالباعة الذين يستوفون حقهم كاملاً، ويُنقصون من حق الشاري، إنما يأكلون الباطل، وسيكون حسابهم عسيراً عند الله تعالى.

٦ ـ **الشورى**: وفي كل المجالات، نظام الشورى يوفِّر الكثير من السلبيات في حياة الناس، فالمشاورة مشاركة الناس في عقولهم، وتجنُّب للأضرار قبل وقوعها، وطمأنة لجماعة المسلمين بالاستفادة من دورهم وخبراتهم، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2]. لاحظ معي هذا الترابط المكثَّف في آية واحدة من جوانب مختلفة، فهي تبدأ بالاستجابة لله تعالى وذلك بالإيمان والتصديق به، وهذا ما يؤدي إلى أداء العبادات كالصلاة، ثم يتشاور المؤمنون المصلون في قضاياهم ومسائلهم المختلفة، ويقدمون أموالهم في سبيل الله تعالى لإعانة الفقراء والمحتاجين، إنَّها آية تتحدث عن الإيمان والعبادة والنظام السياسي والعلاقات الاجتماعية والتعاون بين الناس، وكأنَّها نموذج عن التكامل الذي أراده الله تعالى في منظومة حياتنا، نهتدي إليه في سبيل الله تعالى.

٧ ـ **الدعوة إلى الله تعالى**:لا يقتصر إيمان المؤمن على نفسه، فهو مسؤولٌ عن تبليغ دعوة الله تعالى إلى الآخرين، وعليه أن يتقن دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ليقدِّم

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

الإيمان بأبهى صوَرِه. ولأنَّه كذلك، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]. هذه الدعوة إلى الله تساهم في نشر الاستقامة والصلاح، وتعريف الناس على سبيل الله، وتضع حداً لدعاية سبيل الشيطان وزينته، فهي عمل في سبيل الله.

٨ ـ **الجهاد بالمال والنفس**: المؤمنون بالله تعالى ورسوله هم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أي بكل ما يملكه الإنسان في الحياة، وهو أعزُّ عليه مما عداه، وفي هذا الاستعداد للتضحية والجهاد، تعبيرٌ عن الذوبان في خط الاستقامة، من دون ريبٍ أو شكٍ أو تردد، وهو المستوى الأرقى الذي يُريدنا الإسلام أن نصل إليه، فنكون من الصادقين، الذين صدَّقوا ما آمنوا به، وصَدَقوا في خيارهم ببذل كل شيء من أجله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2]، هذا المؤشر العملي الأساس الذي يحسم الطريق إلى الله تعالى.

وإذا أراد المؤمنون الدفاع عن دينهم وأرضهم وحياتهم فليقاتلوا الذين يقاتلونهم، لكن لا يجوز لهم الاعتداء على الآمنين والمسالمين، أو الذين عقدوا اتفاقاً وصلحاً معهم، قال تعالى:

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(١).

٩ ـ **عيونٌ في سبيل الله**: كلُّ جارحة لدى الإنسان مدخلٌ إلى سبيل الله أو إلى سبيل غيره، وهذا عائدٌ إلى اختياره، ومن هذه الجوارح العين، التي تكون مدخلاً إلى الطاعة أو المعصية، وقد حدَّثتنا الرواية عن ثلاثة نماذج من العيون تفوز حتماً بثواب الله تعالى يوم القيامة، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**كلُّ عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضَّت عن محارم الله**»(٢).

١٠ ـ **طريق الشهادة**: استعداد المؤمن للشهادة في سبيل الله يحقِّق مرتبته العليا وفوزه في خط الطاعة، وليس لزاماً أن يُقتل في سبيل الله، فقد لا يختم حياته بالشهادة بسبب الظروف الموضوعية، فيموتُ على فراشه بسكتة قلبية، أو يموتُ بسبب مرض، أو حادث، أو يُجرح، أو يؤسر، أو غير ذلك ما دون الشهادة، وهذا ما لا يعني نقصاً أو سلبيةً في أدائه، فما يملكه من استعداد يكفي ليكون في صفِّ الشهداء، أي في صفِّ المؤمنين المقبولين في الدرجات العليا في سبيل الله. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من جُرح في سبيل الله، جاء يوم القيامة ريحُهُ كريح المسك، ولونُهُ لون الزعفران، عليه طابع**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٨٠.

الشهداء، ومن سأل الله الشهادة مخلصاً، أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه»[١].

١١ ـ **حسنُ الخُلُق**: في الحديث الشريف: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٢]، وعندما وصف الله تعالى في القرآن الكريم خاتم الأنبياء بالصفة الأرقى والأعظم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، هذا ما يؤشر إلى الهدف السلوكي الذي يريده الله تعالى منَّا في سلوك سبيله. وعلى الرغم من الأهمية الكبرى التي أعطاها الإسلام للجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، فإنَّ حُسن الخُلُق بمثابة الجهاد في سبيل الله، فهو الذي يطبع الشخصية المؤمنة بأداءٍ ينعكس على التفاعل الإنساني مع الآخرين، بما يحقِّق الوظيفة السمحاء للدور البشري المستقيم. عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ الله تبارك وتعالى ليُعطي العبدَ من الثواب على حُسن الخُلُق كما يُعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه ويروح**»[٤].

١٢ ـ **مساعدة الآخرين**: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثوابُ المجاهدين في سبيل الله**»[٥]، حيث تكون مساعدة الآخرين مؤشراً على روحية التواصل الإنساني من

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٤، ص: ٤٠٨.
(٢) الشيخ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص: ٨.
(٣) سورة القلم، الآية: ٤.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ١٠١.
(٥) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص: ٢٨٨.

دون الالتفات إلى المكسب الشخصي أو البدل عن المساعدة، وهذا نموذجٌ من الإحسان الذي يعكس التربية المستمدَّة من إحسان الله تعالى على عباده، قال تعالى: «**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ**»(١).

١٣ ـ **الاحسان الى الوالدين**: على المؤمن أن يُحسن إلى والديه، ويتذكر أنهما سبب وجوده في هذه الحياة، وقد ربَّياه صغيراً وبذلا له كل شيء، لكن إذا أرادوا حرف مساره ودعوته إلى الشرك، فلا يطعهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)، ولا بدَّ من التمييز بين عدم طاعتهما في الكفر والعصيان، وبين مصاحبتهما بالمعروف والإحسان، فرفض الشرك لا يلغي أخلاقية التعامل مع الوالدين.

١٤ ـ **طلبُ العلم**: العلم مفتاح المعرفة، والمعرفة طريق الهداية إلى الصواب، وعلى الإنسان أن يتعلَّم ويوسِّعَ مداركه ليميِّز الحقَّ من الباطل، والخبيثَ من الطيِّب، لذا يكون طالبُ العلم في سبيل الله ما دام كذلك، فعن رسول الله محمد ﷺ: «**من طلبَ العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**»(٣). وكانت أول آيات القرآن الكريم التي نزلت على نبينا محمد ﷺ تحثُّ على القراءة، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

---

(١) سورة القصص، من الآية: ٧٧.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، ج ١٠، ص: ١٣٩.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

١٥ ـ **الانفاق:** عندما شجّع الإسلام على الإنفاق في سبيل الله، نبَّه على عدم إلقاء النفس إلى التهلكة، ودعا إلى التوازن في الإنفاق، بما يُبقي للمرء قدرة على تيسير أموره ومتابعة متطلبات حياته، وحثَّ على الاحسان لما له من تأثير تربوي ومعنوي وانساني في الحياة. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

الإنفاق في سبيل الله ربحٌ تظهر آثاره فيما يثيب الله تعالى عليه في الآخرة، وفي البركات التي يمنحها للمُنفق في الدنيا، ففي الآية الكريمة: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[3]، وفي آية أخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]. وفي الحديث الشريف: «**أكثروا من الصدقة تُرزقوا**»[5]، وهو خلاف ما يعتقد به البعض، بأنَّ الصدقة تُنقص المال، فإنَّ الله الرزاق يزيد من عطاء العبد مقابل صدقاته.

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) سورة الأنفال، من الآية: ٦٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٥) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص: ١٧٦.

١٦ ـ **حزب الله:** سلوكُ سبيل الله طاعة لأوامر الله تعالى، يصدق عليه الانتماء إلى حزب الله، والسائرون على هذه الطريق لا يتنازلون عن الحق، ولا يداهنون، ولا يتصرفون بمودة مع المحاربين لله ولرسوله وللمؤمنين، بصرف النظر عن أولئك المحاربين ومدى قرابتهم، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، فهم لا يعيشون العصبية للانتماء الأسري أو القبلي أو العشائري، بل يعيشون الانتماء للخط والمنهج، فمن كان في سبيل الله كانوا معه، ومن كان ضده اتخذوا مسافة منه. لا يمكن للعلاقة العاطفية في حب الأهل والعشيرة أن تحلَّ محل المنهج المستقيم، هؤلاء هم أبناء حزب الله المفلحون، الذين رضَي الله عنهم، ورضوا بما أعطاهم الله تعالى، فخيارهم محسوم، وهو الذي يحقِّق لهم الطمأنينة والاستقرار بكل أبعادهما. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

حزب الله تعبيرٌ عن الالتزام بالمنهج الإلهي، فهو ليس حالة عصبوية وإنما ارتباطٌ بالإيمان بالله تعالى، وهذا ما يبرز من خلال السلوك في إطار التقوى، بالإقدام على الطاعات والواجبات،

---
(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

والامتناع عن المعاصي والمحرَّمات. فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«أيسرك أن تكون من حزب الله الغالبين؟ اتَّقِ الله سبحانه، وأحسِن في كل أمورك، فإنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»**(١).

وعلى المؤمنين أن يهيئوا أنفسهم لصعوبات هذه الطريق، ولا يستوحشوا في طريق الهدى لقلة سالكيه، ولا ييأسوا من انتشار الكفر والانحراف في أرجاء المعمورة، ولا يستسلموا عندما يجدون أنفسهم كالغرباء بسبب دينهم والتزامهم، فالأساس بالنسبة إليهم هو إيمانهم والتزامهم، وأن يكونوا من حزب الله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«فعليكم بالتمسك بحبل الله وعروته، وكونوا من حزب الله ورسوله، والزموا عهد رسول الله وميثاقه عليكم، فإنَّ الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً»**(٢).

وهل توجد صعوبة أكبر من أن يُقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسين عليه السلام مع خيرة أهل بيته وأصحابه في كربلاء؟ أليس من المآسي أن يقتتل المسلمون عبر التاريخ فيذهب ريحهم وتتمزق دولتهم ثم تسقط أمام الاستعمار الأجنبي؟ وهل ستثمر التضحيات الكبرى التي قدمها المؤمنون الصادقون للمحافظة على أصالة الإسلام ونقائه؟ لقد عبَّرت السيدة زينب عليها السلام في موقفها الشجاع أمام أهل الكوفة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام بوضوح عن إيمانها

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص:٣٦٢٥.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٠، ص:٧٩.

بانتصار الحق مهما كانت ظروف اللحظة ووضع المؤمنين، قالت: **«يا أهل الكوفة، سوءة ما لكم خذلتم حسينا وقتلتموه، وسبيتم نساءه ونكبتموه، ويلكم أتدرون أي دواهٍ دهتكم، وأي وزرٍ على ظهوركم حملتم، وأي كريمة أصبتموها، وأي أموال انتهبتموها، قتلتم خير رجالات بعد النبيﷺ، الا انَّ حزب الله هم الفائزون، وحزب الشيطان هم الخاسرون»**[١].

لا ينحصر الإيمان بجماعة دون غيرها، ولا يشكِّل انحرافها عن الإيمان انتهاءً للوجود الديني على الأرض، لأن إرادة الله تعالى أن يكون للوجود الديني جماعته المخلصة والفاعلة.

كل الآيات والروايات تؤكد على عدم خلو الأرض من المؤمنين، وأن النصر سيكون حليفهم في نهاية المطاف، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٢]، فمهما طال الزمن لا بدَّ أن ينتصر مسار سبيل الله، فإذا ما انحرفت جماعة كان يؤمل منها الاستقامة عن هذا المسار، استبدلها الله تعالى بغيرها، من دون النظر إلى العرق أو الجنس أو اللغة أو البلد، ففي خلق الله استعدادٌ للإيمان، فإن لم يؤمن هذا الفرد يؤمن الآخر، وإن لم تؤمن هذه الجماعة تؤمن الأخرى، ولكن لا تخلو الأرض من جماعة المؤمنين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ

---

(١) ابن نما الحلي، مثير الأحزان، ص:٦٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

إنّنا ننتظر الانتصار الإلهي الكبير على يد صاحب العصر والزمان الإمام المهدي(عج)، ولن يستطيع أحدٌ أن يمنع هذه النتيجة، فالله تعالى لا يُخلِفُ وعده بنصر المؤمنين واستخلافهم وتمكين دينهم، ذكر رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢). فقال أحد الصحابة واسمه جندب: يا رسول الله فما خوفهم؟ قال: **يا جندب، في زمن كل واحد منهم سلطان يعتريه ويؤذيه، فإذا عجَّل الله خروج قائمنا، يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جورا وظلما. ثم قال: طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمتقين على محجتهم، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾**(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٦، ص:٣٠٦.

الضَّالون عن سبيل الله

الضَّالون عن سبيل الله لا يذكرون الله تعالى، ولا يستحضرونه في حياتهم وأعمالهم، ويغرقون في خيارهم ويدافعون عنه، بل يعتقدون أنَّه الأفضل لأنَّه المحقِّق لرغباتهم وملذاتهم. منهم من اقنعوا أنفسهم بأنَّ الصلة القليلة مع الله تعالى تكفيهم لراحة ضميرهم، فهم لا ينكرون وجود الله تعالى، وتسمع في كلماتهم بعضاً من ذِكْرِ الله تعالى من دون تفاعل قلبي وسلوكي، وترى أحياناً في مظهرهم تصرفات توحي بإمكانية الاستقامة، وقد يكونون من المضحِّين لما اختاروه وآمنوا به، فلهم درجاتٌ في الضلال يكشفها مسارهم في الحياة.

ولعلَّ توضيح مواصفاتهم كما ذكرها القرآن الكريم تدلُّنا عليهم، وتدُلُّهم على أنفسهم، فلا حاجة لأن نغرق في التعريفات والاطلاقات، إنما نتوقف عند مواقفهم وأعمالهم، فنُظهِرُ بعضاً منها:

١ ـ **استحوذ عليهم الشيطان**: قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]. امتلك الشيطان عقولهم وقلوبهم وحياتهم، فاندفعوا إلى أهوائهم ورغباتهم، لم يراعوا فيها ما يُرضي الله وما يُغضبه، وما يُجيزه وما يمنعه، فقد نسوا ذكر الله تعالى بعد أن عرفوه، أو ذكروه بشكل محدود لا ينعكس على سلوكهم، فلم يعد لديهم رادع، ولا

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

يسمعون صوتاً يحذِّرهم أو يهديهم. هؤلاء الذين سيطر عليهم الشيطان بمنهجه، فأغرقهم في الملذات والشهوات ومحرمات الدنيا، فلم يعد بإمكانهم أن يروا الحقائق، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وكأنَّ على أبصارهم وأسماعهم غشاوة، كل ذلك بما صنعته أيديهم، فالشيطان منهج وطريق، لا يملك الإجبار والإلزام، فهو أشبه بالدعاية والترويج للباطل، لكنَّ المسؤول هو من انساق إليه وتفاعل معه.

٢ ـ **يصدُّون عن سبيل الله**: لا يكتفي الضَّالون بمسارهم المنحرف، بل يصدُّون عن سبيل الله، ويواجهون دعوة الأنبياء والرسل، وقد ذكر لنا التاريخ معاناة المؤمنين مع الكافرين، الذين منعوهم من صلواتهم وعباداتهم، وظلموهم بأشد أنواع الظلم، وشردوهم وقتلوهم، ليمنعوا وجود وانتشار الهدى بعد أن أدركوه وعرفوه، فهم لا يريدونه في حياتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[1]. لن يفوز هؤلاء في نهاية المطاف، ولن يضروا الله شيئاً، ولن يؤثروا على سبيله، وسيرون فشلهم ماثلاً أمامهم في الدنيا والآخرة.

٣ ـ **يحبون الدنيا**: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والتعلُّق بها سببٌ لنكران الآخرة، وهي مخلوقة بشهواتها وملذاتها لاختبار الإنسان في

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٢.

مرحلة مؤقتة يعيشها على هذه الأرض، فإذا ما نسي الإنسان قِصَرَ عمره في الدنيا، ومسؤوليته فيها، لآخرةٍ فيها الخلود، ارتبط بها وآثرها على الآخرة، بل بدأ يصدُّ عن سبيل الله كجزء من سلوكه المنحرف الذي لا يرضى للإيمان حضوراً وتأثيراً وكشفاً لفشله في الاختبار. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾[1]. لقد أغرتهم زينة الدنيا، والزينةُ مظهرٌ جذَّاب ظاهري ومؤقت، محاطةٌ بالشهوات والمعاصي والملذات، وهي منكرةٌ لأنَّها محرَّمة، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2]. وقد ضلَّ أقوامٌ عبر التاريخ، عاقبهم الله تعالى بالعقاب الجماعي، فدمَّر مساكنهم وأماتهم، كل ذلك بسبب انحرافهم وانغماسهم فيما زيَّن لهم الشيطان من أعمالهم وعمَّ حياتهم، ومن نماذجهم قوم عاد وثمود، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[3].

٤ ـ **الاكثرية التي تتبع الظن:** إنَّهم الأكثرية على هذه الأرض، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[١]، ولكن لن تنفعهم كثرتُهُم، فقد أخبرنا الله تعالى عن قانون الأرض في وجود الأكثرية الضَّالة والمضِلَّة، الذين لا يفوزون ولا يربحون، فالدنيا دار بلاء مؤقت، والعبرة فيمن يصل إلى ثواب الآخرة. بمعرفة هذا القانون، يطمئنُ المؤمنون على الرغم من قلَّتهم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢]، ويُحْرَمُ الضَّالون من مكرمة الشكر لله تعالى وسلوك سبيله.

التمايز بين السبيلين

يتميَّز المختارون لسبيل الله في منهجهم وسلوكهم بأربعة أمور أساسية:

١ ـ الله وليُّهم وناصرهم وهاديهم ومعينُهم، يتوكلون عليه في الهداية والرشاد، والتسديد والطمأنينة، ويرضون بما قسمه لهم، ويتأملون بفرجه ورزقه ورحمته.

٢ ـ يَعْبرون بإيمانهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والظلم والانحراف والفساد والخلق السيئ والحرام والفسق والمنكر...إلى النور الذي يبددها، فتنكشف لهم الحقائق، وتتيسَّر لهم السبيل إلى المعرفة والعدل والاستقامة والصلاح والخلق الحسن والحلال والاعتدال والمعروف...

---

(١) سورة الانعام، الآية: ١١٦.
(٢) سورة سبأ، من الآية: ١٣.

٣ ـ ينالون ثواب الجنة في الآخرة، التي أُعدَّت لأولياء الله المؤمنين الصالحين، وهي النهاية السعيدة بعد عنائهم وتضحياتهم في الدنيا.

٤ ـ يقاتلون في سبيل الله مضحِّين بأنفسهم وأموالهم، ولو أدَّى ذلك إلى قتلهم في هذا السبيل، ليحموا دين الله ومسار الاستقامة في هذه الدنيا، وهم يعلمون بأنَّ كيد الشيطان ضعيف، وزينته زائلة، وخطره قصير ومؤقت، وأنَّ من كان مع الله تعالى القوي القادر الجبَّار، أقوى ومنصورٌ بإذن الله تعالى.

في المقابل، يتَّصف المختارون لسبيل الشيطان في نهجهم وسلوكهم بأربعة أمور مناقضة لما عليه المختارون لسبيل الله، وهي:

١ ـ أولياؤهم الطاغوت، والطاغوت رمزٌ للكفر وللشيطان بكل مضامينه وتشعباته وأشكاله واتجاهاته، ولفظة الطاغوت مفردٌ وجمع، أي يصلح معناها لطاغوت واحد وللطواغيت، فعندما يكون السائرون في سبيل الشيطان موالين للطاغوت، فهذا ما يعني أن يكون الشيطان نصيراً لهم وهم أنصارٌ له، وما أتعس هذه الولاية.

٢ ـ يخرجهم أولياؤهم من النور إلى الظلمات، حيث النور واحد من عند الله تعالى، والظلمات سُبُلُ الضلال المتعددة بتعدد الاتجاهات، فبمجرد الخروج من النور يكون الاتجاه نحو الظلمات، لأن السير إلى النور يعاكس ويناقض اتجاه الظلمات، فمن ابتعد عن النور وصل إلى الظلمات، ومن ترك الظلمات عاد النور.

٣ ـ يكون عقابهم النار في الآخرة، بقرار من الخالق القدير، الذي قرَّر الثواب والعقاب على الأعمال.

٤ ـ يقاتلون في سبيل الطاغوت، متحملين أعباء المحافظة على منهجهم وسلوكهم، حيث اعتادوا على هذا النمط، وغرَّتهم مكتسباته الدنيوية الآنية.

وقد عبَّرت آيتان من القرآن الكريم عن المضمون أعلاه، فأشارت الأولى إلى النقاط الثلاث، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١]، وأشارت الثانية إلى النقطة الرابعة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.

الفصل الثاني

النِعَمُ والبلاء

الدنيا دار بلاء

خلق الله تعالى الدنيا داراً للاختبار والامتحان، يعيش الإنسان فيها حياةً محدودة، ثم يموت، فينتقل إلى عالم البرزخ وهو في قبره حيث يفنى جسده، ليحيا مجدداً يوم القيامة بجسده وروحه، مع جميع البشر، حيث يكون الحساب على ما عمله في هذه الدنيا. فالدنيا دار بلاء وامتحان، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]. ومع فهمنا لطبيعة الحياة يسهل علينا التصرف فيها بشكل متوازن، فالشر بلاء واختبار وفتنة، والخير كذلك، لأن الخير والشر في الدنيا تعبيران عن الامتحان، وبحسب تصرف الإنسان في التفاعل معهما، تكون الأعمال في مساره الدنيوي، والحساب في الآخرة.

إنَّ فلسفة البلاء الدنيوي قائمة على دعامتين:

الأولى: مسؤولية الإنسان في عمره المحدود.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

والثانية: الحساب ثواباً أو عقاباً في خلوده الأخروي.

لم يترك اللهُ الإنسانَ ليتخبطَّ في خياراته، فيسَّر له هدايتين، هدايةً عامة عندما خَلَقَهُ، ففطره على قابلية الاختيار بملء إرادته، وهو يدرك الصواب من الخطأ، والاستقامة من الانحراف، بعقلِهِ الذي يميِّز بين الأمور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1]. وهدايةً خاصة عندما أرسل الأنبياء والرسل عليهم السلام ليوجهوا الناس، ويعلمونهم، ويبيِّنون لهم الخير من الشر، والصلاح من الفساد، مدَّعمين رسالاتهم بالمعجزات لإثبات نبوتهم، وإيقاظ الناس من غفلتهم، وبالكتب السماوية التي تحدِّد قواعد الإيمان والتشريع لحياتهم.

إذاً، يستفيد جميع الناس من الهداية العامة بشكل طبيعي بما فطرهم الله تعالى عليه، ويستفيد بعضهم من الهداية الخاصة للأنبياء باختيارهم، ولا يستفيد أكثر الناس لفشلهم في اختبار الدنيا، وانجرافهم وراء شهواتهم وملذاتهم، وعدم استماعهم إلى صوت العقل والإيمان والنبوة.

ليس للبلاء نمطٌ واحد، فتارة يكون خيراً، وأخرى يكون شراً، فيندرج أحياناً في دائرة النِعَمْ، وأخرى في دائرة النِقَمْ، وهو إمَّا حسنٌ، وإمَّا سيء، فلا توجد ضوابط محددة للبلاء، فهو كل ما يصيب الإنسان في حياته، إيجابياً كان أو سلبياً، ولذا نصف البلاء

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ و ٣.

بالحسن أو السيء بحسب مضمونه، لكنه بلاءٌ في كلتا الحالتين. ويُطلق على البلاء الفتنة، وهي بمعنى الاختبار أيضاً، فالأولاد فتنة، والأموال فتنة، والصحة فتنة، والمرض فتنة، فبصرف النظر عن الخير أو الشر فيما يبتلينا الله به، فهو فتنة تظهر نتائجها من خلال طريقة تعاطي الإنسان معها، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]، وقال تعالى في شمول جميع ما على الأرض بأنه بلاء واختبار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]. وبما أن الدنيا دار بلاء، فلا يُعفى منه أحدٌ من الناس، بحصول أحداثٍ كثيرة ومتنوعة، تيشمل مدة حياة الانسان بأكملها، ولا يختص بمحطة من محطاتها، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[4].

ميَّز الله تعالى في عطاءاته للبشر، مصنِّفاً هذا التمييز بالابتلاء والاختبار. أمَّا عدالة الله تعالى فتبرز في حسابه الأخروي على ما ابتلى به الإنسان في الدنيا، فيحاسب صاحب المال بقدر أمواله في

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية، ٣٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٤) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ و ٣.

كيفية حصوله عليها وصرفها، ومن أنعم الله تعالى عليه بالصحة بمقدار صحته، فمن كان غنياً فبمقدار غناه، ومن كان فقيراً فبمقدار فقره، ومن كان يتمتع بالصحة الكاملة فبمقدار استفادته من هذه النعمة وأداء حقها، ومن عاش مريضاً فبمقدار مرضه، أي أن الحساب بمقدار العطاء، فهو عظيم لمن أعطاه الله كثيراً، وبسيطٌ لمن أعطاه الله قليلاً، لذا تكون مسؤولية الإنسان الدنيوية والأخروية بمقدار الإمكانات التي أعطاه الله تعالى إياها وسخَّرها له في حياته، في مجالات الرزق والصحة والقوة والعقل،...الخ. فلا يظنَّن أحد بأنَّ إمكاناته الدنيوية تكريمٌ له، وأنَّ حرمانه عقابٌ له، فالثواب والعقاب للآخرة، وكل ما في الدنيا بلاء واختبار، بحسب إرادة الله تعالى في توزيع النِعَمْ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وقد اختار الله تعالى بعض أنواع البلاء رحمةً بالإنسان، بحيث تشكِّل ردعاً له وإيقاظاً، ليتعامل مع الدنيا بحسبها من دون مغالاة وإفراط، فعن رسول الله ﷺ: «**لولا ثلاثة في ابن آدم ما طأطأ رأسَهُ شيء: المرض، والموت، والفقر، وكلُّهن فيه، وإنَّه لمعهن لوثَّاب**»[٢]، وبالرغم من هذه البلاءات التي تصيب الإنسان فهو لا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦٩، ص: ٥٣.

يهدأ، وتبقى آماله معلَّقة بالدنيا الفانية، يبحث فيها عن الراحة التي لن يجدها إلَّا في الآخرة، فقد روي عن رسول الله ﷺ: «**والله ما أرجو الراحة إلَّا بعد الموت**»[1]، ومن دعاء الإمام الكاظم عليه السلام: «**اللهم أني أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب**»[2]، وفي الحديث القدسي أنَّ الراحة لما بعد الموت.

أمَّا المؤمن فيستفيد من هذه الابتلاءات ليرفع من مكانته ومقامه، فيتعامل مع الدنيا وكأنها سجنٌ بالمقارنة مع جنة الخلد في الآخرة، وأمَّا الكافر فيزداد تعلقاً بالدنيا، مُعتبراً إياها جنته الموعودة، وبذلك يكون قد حسم خياره بطريقة خاطئة تنعكس على كل مساره، عن رسول الله ﷺ: «**هبط إليَّ جبرائيل عليه السلام في أحسن صورة، فقال: يا محمد، الحقُّ يُقرئك السلام، ويقول لك: إني أوحيتُ إلى الدنيا، أن تمرَّري وتكدَّري وتضيَّقي وتشدَّدي على أوليائي، حتى يحبوا لقائي، وتيسَّري وتسهَّلي وتطيَّبي لأعدائي حتى يُبغضوا لقائي، فإني جعلتُ الدنيا سجناً من الله تعالى لأوليائي وجنَّة لأعدائي**»[3].

قد يتساءل البعض: كيف يكون البلاء من الله تعالى مع أنَّ الإنسان هو الذي يختار أعماله؟

قدَّر الله تعالى القوانين والأرزاق والأعمار، ولا قدرة لدى

---

(١) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج٨، ص: ٢٩٠.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص: ٣٢٣.
(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٨، ص: ١٩٤.

الإنسان أن يعدِّل أو أن يغيِّر فيما قدَّره الله تعالى، فالنار تُحرق، والغذاء ضروري لحياة الإنسان، والليل والنهار يضفيان آثارهما على الكون، والجسد يتعب فيرتاح بالنوم، وتجتمع عوامل عدة وظروف مختلفة لتسبب الرزق المقسوم من الله تعالى، والأجل بيد الله تعالى يفاجئ جميع الناس... وإنما يختار الإنسان في إطار هذه القوانين الإلهية، فهو غير قادر على أن يمدِّد حياته، ولا أن يمنع الضرر عنه، ولا أن يتحكَّم برزقه، بل يتفاعل مع هذه القوانين خيراً أو شراً، فيستفيد من رزقه للحلال أو الحرام، ومن قدرته للطاعة أو المعصية، ومن عقله للصلاح أو الفساد، ومن مرضه للرضا أو الغضب، ومن فقره للصبر أو الكفر، فالخيار يكون من ضمن ما قدَّره الله تعالى في الحياة الدنيا.

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

ينظر الإنسان في كثير من الأحيان إلى الجانب السلبي من الابتلاءات والامتحان، فيرى الدنيا قاتمة، والابتلاءات خسارة، ذلك لأنه لا ينظر إلى الجوانب الأخرى من حياته، والتي تملؤها النِعَم، إذ كل ما يحيط بالإنسان نعمة إلهية، فخلْقُهُ من نطفةٍ نعمة، وحياتُه الدنيوية نعمة، وبصره نعمة، وعقله نعمة، وماء شربه وخدمته نعمة، وغذاؤه نعمة، وما سُخِّر له من الأرض والسماء نعمة... بحيث لا يمكن إحصاء نِعَمِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ﴾[١]. ومن دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، يقول: «**سبحان من لم يجعل في أحدٍ من معرفةِ نِعَمِه إلَّا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحدٍ من معرفةِ إدراكه أكثر من العلم بأنَّه لا يدركه، فشكَرَ عزَّ وجل معرفة العارفين بالتقصير عن معرفته، وجعَلَ معرفتهم بالتقصير شكراً، كما جعل علم العالمين أنهم لا يدركونه إيماناً، علماً منه أنَّه قدرُ وُسْع العباد، فلا يجاوزون ذلك**»[٢]. فالإنسان يعرف أنَّ نِعَمَ الله كثيرة، لكنَّه لا يعرفها كلها، بل لا يعرف الكثير منها، بل لا يحصي أقل من ذلك، ومن رحمة الله تعالى بالعباد، أنَّه يكتفي منهم بتقصيرهم عن معرفتها، واعترافهم بذلك، فهذا هو الشكر لله تعالى من العبد القاصر، الذي آمن بربٍ لا يراه، لطيفٍ بعباده وخبيرٍ بهم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣].

من ذا الذي يمكنه إحصاء نِعَم الله تعالى غيره عزَّ وجل؟ من ذا الذي يمكنه التعرُّف على الآيات الدَّالة على الله تعالى غيرُه جلَّ وعلا؟ إنَّ ما نراه من الكون قليلٌ قليل، وما نراه من أنفسنا قليل قليل، وما اكتشفه البشر من الكون والحياة والإنسان قليلٌ قليل، قال

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص: ٣٩٤./ الصحيفة السجادية، ص: ٢٤ و٢٥.

(٣) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(١). وفي كل يوم يكتشف الإنسان شيئاً جديداً معتقداً أنه وصل إلى أدراك حقيقته، ثم يتبيَّن له أنَّه في بداية الطريق، وما خفي أعظم وأروع. كلما أدرك الإنسان باباً من العلم بأسرار الخلق والحياة فُتحت له أبوابٌ لا حصر لها، في إطار نظامٍ دقيقٍ تحكمه قوانين ثابتة، نتلمَّس من خلالها مسارات واضحة في الحياة، ومن توفَّق ليتَّبع هذه القوانين بما يهديه إلى صلاحه في نتائج أعماله، سلك درب الإيمان متفانياً في سبيل الله تعالى.

تحيط بنا النِعَمُ من كل جانب، وكما نقل كميل بن زياد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**يا كُميل، إنَّه لا تخلو من نعمة الله عزَّ وجل عندك وعافيته، فلا تَخْلُ من تحميده وتمجيده وتسبيحه وتقديسه وشكرِه وذكرِه على كل حال**»(٢)، وإذا ما كان يكفي أن تتحقَّق بعض النعم ليكون الإنسان شاكراً على كل حال، فكيف يكون حاله وقد أحاطت به النعم التي يعجز عن إحصائها؟ يألف الكثيرون ما هم عليه من النعم فلا يلتفتون إليها، ولا يتساءلون عن سببها ومسبِّبها! فهم وجدوا أنفسهم يبصرون ويلمسون ويشعرون ويفكرون ويسيرون ويتزوجون من دون تأملٍ وسؤالٍ عن المنعم؟! ووجدوا أنفسهم

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥٣.

(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١، ص: ١٢١.

يتعلمون ويُرزقون ويبنون حضارتهم ويأنسون في حياتهم من دون حوارٍ مع النفس حول المنعم؟!

أعطانا الله تعالى بعض النعم تامة كاملة، وأعظمها وأشملها نعمة الإيمان والولاية، هكذا حدثنا عنها رب العالمين فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، وحدثنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «**من أمسى وأصبح وعنده ثلاث فقد تمَّت عليه النعمة في الدنيا: من أصبح وأمسى معافىً في بدنه، آمناً في سربه(طريقه)، عنده قوت يومه. فإن كانت عنده الرابعة، فقد تمَّت عليه النعمة في الدنيا والآخرة، وهو الإيمان**»[2]. فمن أراد الاعتراف الحقيقي بنِعَمِ الله تعالى، وأراد أن يشكره عليها، فليزيِّنها بنعمة الإيمان، فهي رأس استثمار عطاءات الله تعالى، ومنها يمتدُّ الشكر إلى كل شيء، وتتحقَّق الطاعة والاستقامة في كل شيء، فالإيمان مسارٌ مليء بالخيرات.

في الرواية، أن أحد أنبياء الله تعالى سمع عن إنسانٍ مؤمنٍ صابرٍ شاكرٍ رغم الابتلاءات الكثيرة التي أصابته، فقصد النبي القرية التي يعيش فيها، وسأل عنه فتعرَّف عليه، وإذ به أمام رجلٍ كفيفٍ لا يُبصر، ومُقعدٍ لا يمشي على رجليه، وفي حالة يُرثى لها، ومع ذلك يردِّد على الدوام: «الحمد لله»، «الشكر لله»، «العون من الله»، «العطاء

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣.

(٢) ابن شعبه الحراني، تحف العقول، ص: ٣٦.

من الله»، ويدل ظاهره على حالةِ شكرٍ دائمة لله تعالى، فسأله النبي إن كان يشعر بالحرج والضيق والمعاناة مما هو فيه، فما كان منه إلَّا أن أجابَهُ بأنَّه راضٍ بقضاء الله تعالى، وليس له إلَّا الشكر، فقد أعطاه الله يوماً بصراً رأى فيه الأشياء، فلما وجد أنَّ هذا البصر يوصله إلى الحرام، حرمه من هذه النعمة، وأعطاه قدمين ليسير بهما، فلما وجد مصلحته في حرمانه منهما، سلب منه نعمة السير، وأبدَلَ عن كل ذلك بخيرٍ كثير ونعمةٍ كبرى لم يصل إليها الكثيرون في قريته، وهنا تشوَّق النبي لمعرفة هذه النعمة، فسأله عنها، فأجابه: **نعمة الإيمان.** هكذا استطاع هذا الرجل من خلال إيمانه وثقته بالله تعالى أن يحوِّل بلاء السوء في عُرف الناس إلى بلاءٍ حسن، وبما أنَّه صَبَر، ورضي، ثم شكر، فقد نجح في الاختبار.

بالشكر تدوم النعم

نسيانُ المنعم من أخطر ما يعيشه الإنسان في حياته، خاصةً عندما يَنسبُ إلى نفسه كل الخيرات وينسى ربَّه. يدَّعي البعض القوة كنتيجة للرياضة والتدريب، وأنَّه حصَّل المال بسبب ذكائه، ووصل إلى المواقع العليا في السلطة لأهليته، وحافظ على صحته بسبب اتقانه لبرنامجه اليومي، ويفاخر الآخرين بما يتمتع به من قدراتٍ ذاتية، ينمِّيها دائماً، وتتولَّد منها قدرات إضافية! وبهذه الإدِّعاءات ينسى ربَّه، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1]، فلولا ما منحه

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ و ٣.

الله تعالى من قوة، وسخَّر له الأرض وما فيها وما عليها، ووهبه الحياة والصحة، وأعطاه مقومات العقل والارتقاء، لما كان له من شيء في هذه الدنيا، بل ربما كان حجراً صلداً لا فاعلية له.

من اعتقد أنَّه تعلَّم وحده، واستغنى بنفسه، وشفي من مرضه، ولم يلحظ مَنْ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، ولم يلتفت إلى مصدر كلِّ نعمة وعطاء وهو الله تعالى، كان جاحداً. وقد بيَّن إبراهيم عليه السلام لأبيه ما لربه من نِعَمٍ أنعمها عليه، ولذا أنكر ما يعبد قومه من أصنام لا تنطق ولا تتحرك ولا تهبُ شيئاً، وآمن بالله الخالق الوهاب، فقال كما ورد في القرآن الكريم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[2].

كيف يحصل الإنسان على نباتات الأرض ليأكلها؟ ألم يخلق الله الأرض والحب والماء والشمس لتتفاعل مع بعضها، ثم يأتي المخلوق البشري ليحصدها بقوةٍ منحه الله تعالى إياها، ويأكلها لتأخذ مسارها في جهازه الهضمي الذي نظَّم الله تعالى أداءه، ليتوزع الغذاء عبر الجسد، ثم تخرج النفايات عبر المخرج، في عمليةٍ معقَّدة متقنة تعطي الإنسان حيوية البقاء إلى حين الأَجَلْ؟!

---

(١) سورة العلق، الآية: ٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٧٥ ـ ٨٢.

كيف يتجبَّر الإنسان ويطغى والملكُ كله لله تعالى؟ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[١]. وكيف لا يعبدُ الإنسان ربَّه الذي أعطاه كل شيء؟ لو أن طبيباً عالج أعمى، وأمَّله بالشفاء، وطلب منه أن يأتيه يومياً إلى عيادته خمس مرات لسنواتٍ عدَّة من أجل معالجته، ولاحظ المريض تقدُّماً تدريجياً، ألا يقبل ذلك؟ ألا يقبل بتحمل النفقات والأعباء مهما بلغت ليستعيد بصره؟ ألا يرضى بتحمل أي عبء من أجل أن يرى مجدداً؟ فما بالك بمن أعطاه بصراً من دون سؤال، وفي أحسن صورة، وفي أحسن تقويم، ألا يستحق الشكر والثناء بالصلاة والدعاء تعبيراً عن الامتنان للخالق العظيم المدبِّر الفرد الصمد!

بالشكر تدومِ النعم وتزداد، وبالكفر تزول النعم وتحل محلها المصائب والآلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[٢]. فالله تعالى يعطي لبني آدم، فإن أحسنوا حسَّن معيشتهم، وإن أساؤوا حرمهم منها تدريجياً، وحوَّلها إلى غيرهم، فعن رسول الله ﷺ: «**إن لله عباداً اختصَّهم بالنعم، يُقرَّها فيهم ما بذلوها للناس، فإذا منعوها حوَّلها منهم إلى غيرهم**»[٣]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**يا بن**

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٢، ص: ٣٥٣.

آدم، إذا رأيت ربَّك سبحانه وتعالى يُتابعُ عليك نعمه وأنت تعصيه، فاحذره»[١].

فالمطلوب أن نبذل النعمة فيما أحلَّه الله تعالى، بالصرف على الزوج والأولاد، وفي متع الحياة المحلَّلة، وفي كل ما يحتاجه الإنسان، وباستخدام الحواس الخمس والقدرات العقلية والجسدية في المعروف والخير، وإلَّا تعرضت للزوال والفقدان. وأمَّا ما نراه من نعمة مستمرة عند بعض من كفر بها، فالله تعالى يمدهم، ويؤخر سلب النعمة عنهم لأسباب أخرى، إذ ربما كان استمرار النعمة لأعمال خير قام بها الإنسان، ويريد الله تعالى أن يكافئه عليها في الدنيا، كي لا يكون له على الله شيء في الآخرة، وربما كان استمرارها لمزيد من الابتلاء والاختبار كي لا تكون لديه أي مكرمة أو حجة في يوم القيامة، فالله أعلم بما يفعله وما يريده، لكنَّ المؤكد بأنَّ النعمة لا تستمر مع الكفر بالمنعم، ومع الفساد والانحراف، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٢].

إنَّ الشكر المطلوب هو الاعتراف بمصدر النِعَم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: **«قال الله عزَّ وجل لموسى بن عمران عليه السلام: يا موسى، اشكرني حقَّ شكري.**

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ٢٥، ص: ٧٣٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

قال: يا ربِّ، وكيف أشكرك حقَّ شكرك، وليس من شكر أشكرك إلَّا وأنت أنعمت به عليَّ؟

فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى، الآن شكرتني حين علمتَ أنَّ ذلك مني»[1].

فإذا ما اعترف الإنسان بمصدر النِعَم وهو الله تعالى، تأثرت حياته بهذا الإيمان، والفرق كبير بين من يعترف بالمنعم فيرتِّب على الاعتراف مسار حياته، في أن يلحظ ربَّه في كل شيء، فيطيعه عندما يفكر، ويعمل، ويتكلم، ويبذل ماله، وينظم حياته، ويبني علاقاته مع الآخرين، وبين أن ينسى المنعم أو ينكره، فينسِب القدرة إلى نفسه، وبذلك يتكبَّر، ويطغى، ويغرق في ملذات جسده، ويختار مساره بما ينسجم مع غرائزه وشهواته، بعيداً عن الإيمان بالله تعالى.

الإيمان يستلزم الطاعة لله تعالى، والالتزام بأوامره ونواهيه، ومعيار نجاح الإنسان في امتحان الدنيا نجاحه في طاعة ربِّه، ولا يكون النجاح بتحقيق ما نحب وما نرغب، إلَّا إذا كان ما نحبه ونرغبه منسجماً مع الطاعة ووفقنا الله تعالى إليه.

الانتصار في المعركة محبوب ومرغوب، ولكن قد نخوض معركة مشرِّفة ومُحِقَّة ضد الأعداء، فننهزم فيها، لكن ليس لنا أن

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٩٨./ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٣، ص: ٣٥١.

نيأس أو أن نرتدَّ، فنجاحنا أنَّنا في الخط المستقيم، سواء انتصرنا أم انهزمنا.

وتحصيل الثروة والسلطة والموقع أمورٌ محبوبة ومرغوبة، ولكنَّها لا تُعبِّرُ عن نجاح من حصل عليها، ولا فشل من حُرم منها في الدنيا، إنما المقياس هو الطاعة لله تعالى. فإذا حصل الإنسان على الثروة والسلطة والموقع بطاعة الله فقد نجح في الامتحان، وإذا فشل في ذلك وهو في طاعة الله فقد نجح في الامتحان أيضاً، لأنَّ امتحانه الدنيوي في خياره بين الطاعة والمعصية، فإذا اختار الطاعة فاز مهما كانت نتائج الدنيا، سواء أعجبته أم لم تعجبه، أرادها أم لم يُرِدها، فهو مع الطاعة يرضى بما قسم الله له، بعد أن يؤدي ما عليه، ويسعى سعيه ليجمع بين طاعته ورغبته بالنتائج المرهونة بتوفيق الله تعالى وتقديره.

انتصر الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء رغم استشهاده مع أهل بيته وأصحابه، لأنَّه قاتل من منطلق الإيمان والطاعة، ولم يستسلم للحاكم الظالم ولم يبايعه، ورسم للأمة طريق صلاحها، وانهزم يزيد رغم انتصار جيشه العسكري، لأنَّ أهدافه المنحرفة انفضحت، وانكسر سلطانه مع الزمن، وحمل معه سلبيات أعماله. كان الحسين عليه السلام يقول: «**إني لا أرى الموت إلَّا سعادة والحياة مع الظالمين إلَّا برما**»[1]، وهذا ما تحقق له بالطاعة، فنجح في امتحان

---

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص: ٢٠٥./ المقتل لأبي مخنف، ص: ٨٦.

الدنيا، بينما فشل يزيد ومن معه في هذا الامتحان. علينا أن ننظر دائماً إلى الهدف كمعيار لتقييم النتائج، وهذا لا يعني أن الرغبة البشرية لا تميل إلى النصر، لكن يجب أن نتوقع عدم تحققه، فهل نتخلى عن هدفنا لعنوان النصر ولو كان في خانة الأعداء! أم نتقبَّل الشهادة حفاظاً على الطاعة؟ لعلَّنا لا ندرك مصالحنا في كثير من الأحيان، والعلم عند الله تعالى، فلنختر الطاعة، ولنسلِّم أمرنا لله تعالى، ولنُقبل على الطاعة أحببناها أو كرهناها، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

كيفية تعاطي المؤمن مع البلاء

ينطلق المؤمن من حتمية البلاء، سلبياً كان أو إيجابياً، فلا يقف أمامه عاجزاً أو يائساً أو مستهتراً، فهو امتحان يتطلب إنجازه بحسب تكليفه، وكلما أتقن التعامل مع البلاء زادت مرتبته في النجاح. هذا هو واقع الحياة، وهذه هي إرادة الله تعالى، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

«اللهم أنت الذي توفِّر المقومات اللازمة والعدة المناسبة التي تساعدني عند حزني، حال وقوع المكروهات أو الخسائر التي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

تسبَّبت بذلك. وأنت الذي تيسِّر لي حاجاتي ومطالبي كلها، يا أملي ومنتجعي وملجئي، فليس لي غيرك إن حُرمت وخسرت وفقدت أي نعمة من النِعَم. بك استغيث واستعين، وإليك ألجأ إن أصابتني الكوارث واشتدت عليَّ المصائب وازداد قلقي بسببها، وعندك البدل لما فاتني فلم أحصل عليه، حيث تخلفني بما هو أفضل لي، ففي دعاء الافتتاح الذي يُتلى في كل ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك: «**فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**». وعندك لما فسد من أعمالي صلاحٌ بتوفيقك لي وإرشادي إليه، وعندك فيما قمتُ به من أعمال منكرة لا تقبل بها، وما شكَّل عيوباً وانحرافات بسبب تصرفاتي، تغييرٌ نحو المعروف والطاعة.

الابتلاءات في حياة الإنسان طبيعية ومتنوعة، فهو يحزن بسببها، أو يصيبه الحرمان والشدائد، أو تفوته أمور، أو يجترح المفاسد والمنكرات، كل هذا يدخل منفرداً أو مجتمعاً في دائرة الامتحان والاختبار، وعليه أن يتوقع الألم والأذى والحرمان والمكروه والفساد، ما دام في هذه الحياة الدنيا. كما تتفاوت تلك الابتلاءات شدة أو ضعفاً، بين إنسان وآخر، فتكون آلام الأول وأحزانه أشد، بينما تكون مفاسد ومنكرات الثاني أكثر، ويخسر الثالث خسائر كبرى، بينما يرتكب الرابع المعاصي أكثر، فالعبرة الأساس هي في

كيفية تعامل الإنسان مع هذه الاختبارات مهما كانت وكيفما كانت»[١].

عندما يسلِّم المؤمن أمره لله تعالى، فيصبر على البلاء بأنواعه المختلفة، يحصل على البشارة التي حدَّثنا عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٢]. كيف تتحقق البشارة؟ يُصابُ المؤمن بمصيبة، فلا يستنكر، ولا يستشيط غضباً، بل يسلِّم أمره لله تعالى، فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، ويعترف أنَّ النعمة التي خسرها عطيةٌ من الله تعالى استردَّها، وأنَّ الجهد الذي خسره قوةٌ ممنوحة من الله تعالى لم يثمرِّها له، ومهما كانت المصيبة صغيرة أو كبيرة، في المال أو النفس أو الولد، فهي نازلةٌ من عند الله تعالى على ما منحه الله تعالى له، فكل شيء من الله وإليه، فإذا ما تفاعل الإنسان بهذه الطريقة، تنزل عليه صلواتٌ من ربه وهي الرحمة من الله، تزداد وتزداد كلما كان الصبر أعظم، ثم يهتدي إلى الخروج من المأزق، ويشقُّ طريقه في الحياة بإيجابية، وبذلك تتحوَّل المصيبة إلى هداية، فتكون نتيجة البلاء خيراً وفلاحاً في الدنيا والآخرة.

---

(١) المؤلف، سبيلك إلى مكارم الأخلاق، ص: ٢١٠.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.

«أيها العزيز. إذا كان لكل شيء تعويض وبدل فلمَ الحزن؟ وإذا كان الله عوناً لك فلم الوحشة والضياع والقلق؟ وإذا كانت التوبة مقبولة فلم الاستسلام للفساد؟ وإذا كان التغيير ممكناً فلم الاستهتار بارتكاب المنكرات؟ وإذا كانت الدنيا للفناء فلم التعب سعياً للبقاء فيها؟ وإذا كانت الآخرة للخلود فلم لا تشحذ همتك باللجوء إلى الله للتخلص من كل ما يعيق نجاتك؟!»[١].

إنَّ التربية على التعامل الإيجابي مع البلاء يطبع الشخصية المؤمنة بصفاتٍ متينة ومميزة، تستطيع مواجهة كل أنواع البلاء بثبات ووقار وصبر، ولا تنقلب إلى شخصية حانقةٍ أو متمردة أو متشائمة، فتبقى راضية مطمئنة، يشعر الناس معها بالراحة، ومع أنَّ الجهد المبذول لتكوين هذه الشخصية كبير وكبير، وفيه تعبٌ وعناء، إلَّا أن الآثار عظيمة. وصف أمير المؤمنين علي عليه السلام ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، فقال: «**ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقورٌ عند الهزائز، صبورٌ عند البلاء، شكورٌ عند الرخاء، قانعٌ بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة**»[٢].

التوازن

تتوازن شخصية المؤمن في التعاطي مع البلاء الإيجابي

---

(١) المؤلف، سبيلك إلى مكارم الأخلاق، ص: ٢١٦.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٢٣١.

والسلبي، بحيث لا تكون ردة فعله في مواجهة أي بلاء مختلفة عن غيرها، فالمصيبة والرخاء عنده على حدٍّ سواء، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف المؤمنين: «**نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء**»[1]، فانفعالهم النفسي واحد، لا يُخرجهم عن طورهم، في حزنهم أو فرحهم، فالقاعدة واضحةٌ لديهم: النعمةُ بلاء، والمصيبةُ بلاء، فلا يصح الاستغراق في النعمة، ولا يصح التأزم من المصيبة، بل التوازن هو الحل، الذي يتحقق بالصبر على المصيبة والشكر على النعمة، كل ذلك باعتدال، وفي الآية الكريمة توجيه لهذا التوازن: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]، أي لا تحوِّلوا المصيبة والخسارة إلى مأساة تقلقكم وتنغِّص معيشتكم، ولا تختالوا بنعمةٍ من النِعَم فرحين وكأنكم وصلتم إلى مبتغاكم، بل احرصوا أداء حق النعمة بشكرها وأداء مستلزماتها.

كلُّ شيء خير

يتعامل المؤمن مع البلاء بأنَّه خير له، فإذا ما ابتلاه الله بالفقر فهو خيرٌ له من الغنى الذي يرغبه، بلحاظ المقارنة بين الغنى المرغوب والفقر المتحقق، إذ ربما كان الغنى سبباً لمآسي وانحرافات قد تصيبه، وذلك في علم الله تعالى المطَّلع على الأسرار

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٣، ص: ٤٦٩.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

والخفايا، فحلَّ محلَّه الفقر الذي يتطلب صبراً مُنجياً من هذه المآسي والانحرفات. وإذا ما ابتلاه بالغنى فهو خيرٌ له من الفقر، فقد يُصلح الغنى حاله، ويدفعه إلى المزيد من عمل الخير، فيكون محسناً في شكر النعمة، ولعلَّ الفقر بالنسبة إليه سببٌ لليأس والتمرد والشرك. وإذا ما ابتلاه الله بالمرض فهو خيرٌ له من الصحة التي يحبها، فربما دفع عنه هذا المرض ما هو أعظم، وربما كانت صحته ستدفعه إلى المعصية فجاءه المرض لاجماً لهذا المُنزَلق، وربما كان المرض اختباراً أسهل عليه من اختبار الصحة، وهكذا... فالاحتمالات كثيرة، وعلمها عند الله تعالى، ولا يرتاح المرء إلَّا إذا سلَّم أمره إلى الله تعالى، فصَبَر على بلائه، وشكَرَ نعماءه، ورضي بقضائه. عن الإمام الصادق عليه السلام، فيما أوحى الله تعالى إلى النبي موسى عليه السلام: **«ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إليَّ من عبدي المؤمن، فإني إنما أبتليه لما هو خيرٌ له، وأعافيه لما هو خيرٌ له، وأزوي عنه ما هو شرٌ له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضَ بقضائي، أكتبه في الصدِّيقين عندي، إذا عمل برضائي وأطاع أمري»**[1].

يصل المؤمن في تربية نفسه إلى اعتبار البلاء نعمة والرخاء محنة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«لا تكون مؤمناً حتى تُعدَّ البلاء نعمة والرخاء محنة، لأنَّ بلاء الدنيا نعمة في الآخرة، ورخاء الدنيا**

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٦١.

محنةٌ في الآخرة»[1]. لو أجرينا مقارنة بين نسبة المؤمنين الأغنياء وأصحاب السلطة والأقوياء، ونسبة الفقراء والرعية والضعفاء، لوجدنا النسبة الأولى أقل بكثير من النسبة الثانية. أما الرخاء فيغري ويشدُّ إلى الدنيا، ويساعد في تحقيق الملذات، ومعه ينسى الإنسانُ المُنْعِمَ، ويفرح بما حصل عليه، ولذا نجد القلَّة من أصحاب الرخاء الذين يلجمون رغباتهم الجامحة، ويستقيمون مع ما أَنْعَم الله تعالى عليهم من الخيرات، متقيدين بالحلال وممتنعين عن الحرام. وأمَّا البلاء السلبي كالفقر والمرض وغيرهما، فيحرم من تحقيق اللذة للإنسان، الذي يعيش المعاناة بجهد وعناء، فتكون اللذة بالنسبة إليه صعبة المنال أو معقَّدة، فينصرف إلى معالجة مشكلة ضعفه وعجزه، وغالباً ما يرضى بما هو عليه، متأملاً تغيير الحال في المستقبل، ملتجئاً إلى ربِّه داعياً وراجياً ومناجياً، ما يمثِّل بالنسبة إليه الأمل المرتجى للخلاص من مأزقه. بهذا التفسير للبلاء والرخاء، نفهم معنى أن يكون البلاء نعمة، حيث تقل فرص المعاصي معه، ويقترب الإنسان من ربِّه أكثر فأكثر، ونفهم معنى أن يكون الرخاء محنة، حيث تضعف النفس الإنسانية أمام إغراءات الرخاء، فتنجرف في الملذات وتبتعد عن طاعة الله تعالى.

لا ييأس المؤمن مهما اشتد عليه البلاء، ولا ينهار مهما واجه من صعوبات، إذ يبقى أمله بالله كبيراً، فهو المعين والمنقذ، ولا يقتل

---

(١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص: ٢٣٧.

نفسه لأن النفس أمانة من الله تعالى، وهو لا يملك حقَّ إنهائها، بل عليه أن يوجهها ويحميها ويواكب اختباراتها في حياته، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنَّ المؤمن يبتلي بكل بلية، ويموت بكل ميتة، إلَّا أنَّه لا يقتل نفسه**»[1]. وما نراه من حالات انتحار عند بعض الناس فلأنهم فقدوا الصلة بالله تعالى، ولم يعد لديهم أملٌ يحفزهم على الصبر والمثابرة، بينما سُنَّة الله تعالى فيما فطر عليه الإنسان أن يكون لديه غريزة حب البقاء، وأن يدافع عن حياته إلى آخر لحظة، وأن يُبعدها عن المخاطر، وما يحصل في جهاد أعداء الله تعالى، رغم المخاطر الكبيرة واحتمالات الشهادة، إنما هو دفاعٌ مشروع عن الحياة الإنسانية العزيزة، التي يبذل المجاهد من أجلها ويضحي أملاً بالفوز والنصر وإلَّا فالشهادة في سبيل الله، وهو بذلك لا يتخلى عن الحياة، بل يختار لها مساراً يسعده، فإذا قُتل في سبيل الله تعالى فلانتهاء أجله.

يسأل المؤمن ربَّه العافية، ولا يسأله البلاء. والفرق كبير بين القبول بالبلاء الذي قدَّره الله تعالى، وبين طلبه ابتداءً، فالقبول رضىً بقضاء لا يُردُّ، مقدَّر من الله تعالى، ولا سلطة للإنسان في دفعه أو رفض مفاعيله، أما طلبهُ فهو طلبٌ للاختبار، وليس من مصلحة الإنسان أن يطلب الاختبار أو المزيد منه أو تشديد البلاء أو الحرمان من الرخاء، بل مقتضى فطرته أن يطلب الخير والعافية، ثم يسأل ربَّه

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٢٥٤.

أن يعينه كي لا ينجرف ويقع في مطبَّاتِ ملذات الرخاء. يدفعنا الإسلام لهذا النمط التربوي كي لا نتحسَّس من نِعَمِ الله تعالى، أو نعتبرها ضرراً ومصيبة، فالمصيبة من سوء أدائنا وليس من عطايا الله جلَّ وعلا. روي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يسألُ الله الصبر، فقال له: «**سألتَ الله البلاء، فاسأله المعافاة**»(١)، وعنه ﷺ: «**ما سُئل الله شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العافية**»(٢). وروي أن رجلاً كان يطوف حول الكعبة ويقول: اللهم إني أسألك الصبر! فضرب الإمام زين العابدين عليه السلام على كتفه وقال له: «**اللهم إني أسألك العافية، والشكر على العافية**»(٣).

الكافر لا يتعظ

يصيب البلاءُ بأشكاله المختلفة المؤمنَ والكافرَ على حدٍ سواء، ولكنَّ الفرق بينهما: أن المؤمن يتعظ من البلاء، ويتعاطى معه كاختبار لمصلحته، ويمهِّد لثوابه في الآخرة، بينما لا يتعظ الكافر، وربما يزداد غيَّاً، ويتصرف على ضوء رغباته وملذاته الجسدية المادية، ظناً منه بأنَّ دنياه هي كل شيء، ولا يرتِّب أي أثر لليوم الآخر. علماً بأنَّ عطاء الله للكافر كعطائه للمؤمن، اختبارٌ وامتحان، وليس مكافأة أو مكرمة، فعندما يتعاطى الكافر مع النِعم الإلهية

---

(١) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٢، ص: ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٦٤.

(٣) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، ص: ١٢٥.

باستهتار أو عصيان إنما يفشل في الامتحان الدنيوي، ما سيرتب عليه عقاباً في الآخرة، ويكون مشتبهاً عندما يعتقد بأنَّ زيادة النِعَم دليلٌ على صوابية تصرفاته، لأنها نموذج من نماذج الاختبار، الذي يكون بالحرمان تارة، وبزيادته تارة أخرى، وبالعطاء طوراً، وبزيادته طوراً آخر، فما يمدُّ الله به الكفار من المال والبنين والسلطة والقوة والصحة جزءٌ لا يتجزأ من الاختبار، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وربَّ سائل: لماذا يزداد الكفار غنىً وتسلُّطاً أكثر المؤمنين؟

لقد بيَّنا فيما سبق بأن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يشكرون، ومن الطبيعي أن يبرز الغنى والسلطان عند الكافرين أكثر من المؤمنين، بلحاظ غلبة إعداد الكافرين على أعداد المؤمنين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنَّ طريق الغنى الفاحش والإمساك بالسلطة إنما يحصل غالباً بارتكاب الحرام والتزوير والطغيان والظلم... وهو سلوك الكفار الذي يوصلهم إلى الغنى والتسلُّط، بينما يراعي المؤمنون طريق الحلال والعدل، ما يجعل حياتهم معتدلة في أحسن حالاتهم،، ونادراً ما يصل أحدهم عن هذه الطريق إلى الثراء الفاحش، وقليل من يتوفق منهم إلى السلطة الواسعة الفاعلة. ومن ناحية ثالثة، يلحظ العطاء الإلهي لبعض الحالات الكافرة زيادة مَدَدِها

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٤ ـ ٥٦.

في الدنيا، كجزء من معادلة تصفية الحساب فيها، بحيث يكون العطاء الإضافي عن أعمال إيجابية قاموا بها، فكأنما أخذوا في الدنيا مقابل ما بذلوا، فيأتون يوم القيامة ولا شيء لهم، إضافة إلى أن زيادة النِعَم تكشفهم أكثر فأكثر، وهم ليسوا معذورين فيما اختاروا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وهل تُقارن أي نعمة عند الكافر بنعمة الإيمان التي تعتبر أعظم وأرقى وأتم النعم الإلهية للإنسان على الأرض؟! وماذا ستنفع الكافر هذه النعم الإلهية طالما أنَّه لا يتعظ، ولا تذكِّره بمصدرها، ولا تدفعه إلى الاستقامة في الحياة تمهيداً لثواب الآخرة؟!

والبلاء الأشد، أن ينحرف الكافر رغم البلاءات السلبية كالمرض والجوع والفقر والمظلومية ... وأن يزداد كفره مع ازديادها عليه، فيكون بذلك خاسراً باعتبارين: حرمانه الدنيوي، وعقابه الأخروي! هذا لا يعني أنَّه غير مشمول بِنعم الله تعالى، فخَلقُهُ نعمة، وعقله نعمة، وأمور كثيرة تحيط به نعمة، لكنَّنا نتحدث عن البلاء السلبي بالمقارنة مع ما يرغبه الإنسان، وبالمقارنة مع الابتلاءات الإيجابية.

يبقى الإيمانُ محوراً أساسياً في خيارات الإنسان، يترتَّب عليه أو على عدمه السلوك، وتنتج عنه خواتيم الأعمال ونتائجها. يرى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

المؤمن الحياة من منظار مختلف عن منظار الكافر، ويرى دوره مختلفاً عما يراه الكافر، ويوجِّه رؤيته وسلوكه على أساس الإيمان. فهذا أبو ذر الغفاري(رض) الصحابي الجليل المعروف، يعرض رؤيته للموت والفقر والبلاء على ضوء الإيمان، فعن شعيب العرقوقي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيءٌ يُروى عن أبي ذر(رض) كان يقول: «**ثلاث يبغضها الناس وأنا أُحبُّها: أحبُّ الموتَ، وأحبُّ الفقرَ، وأحبُّ البلاء. فقال: إن هذا ليس ما يروون، إنما عنى: الموتُ في طاعة الله أحبُّ إليَّ من الحياة في معصية الله، والبلاءُ في طاعة الله أحبُّ إليَّ من الصحة في معصية الله، والفقرُ في طاعة الله أحبُّ إليَّ من الغنى في معصية الله**»[1].

الأشدُّ بلاء

تتفاوت مستويات البلاء بين الناس، ويتبيَّن لنا مما ورد من آيات وروايات وتجارب واقعية أنَّ المؤمن أشدُّ بلاءً من الكافر، لأنَّ الكافر لا يراعي أي ضوابط في حياته، بينما يراعي المؤمن ضوابط الحلال والحرام، وهو ما يجعله أمام اختبارات صعبة، تتطلب إرادة قوية، للثبات على الخيار الحلال والسليم. وكلما اشتد بلاء المؤمن فصبر عليه، عَلَتْ درجاته، وتجوهر معدنه، وسمت مكانته في الدنيا والآخرة، إذ أنَّ نجاحه في الاختبار الأشد دليلٌ على أهليته ليكون الأفضل والأتقى، وبما أن الأنبياء عليهم السلام أفضل البشر، فإنَّ بلاءاتهم

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص: ٢٢٢.

أشدُّ وأقوى، ويُبرز صبرهم عليها مكانتهم وأهليتهم، فزيادة البلاء علوُّ مكانةٍ وارتقاءٌ في مراتب التقوى. عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ أشد الناس بلاءاً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل**»[1]، ولأنَّ النبي محمد صلى الله عليه وآله هو سيد الأنبياء والمرسلين،كان بلاؤه أعظم وأشد منهم ومن جميع البشر، فعنه صلى الله عليه وآله: «**ما أوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت**»[2].

تساعدنا بلاءات من عاش قبلنا من الناس والأنبياء والمرسلين في أن نتأسَّى بهم، ونستفيد من تجاربهم، ونتعرف من خلالها على شدة ما يواجهه الإنسان في بعض الحالات، وهذا ما يجعلنا نهوِّن من بلاءاتنا التي نواجهها، إذ مهما كانت كبيرة وعظيمة، فلن تكون أكبر وأعظم مما واجهه من سبقنا.

فها هم أصحاب الاخدود، يقتلهم ملك من حمير اسمه ذو نواس، تهوَّد وأراد أن يُلزم مسيحيي نجران بأن يتركوا دينهم، وعندما رفضوا، شق لهم أخدوداً في الأرض، وأشعل فيه النار، ورماهم فيها، هذا ما حدَّثنا عنه القرآن الكريم: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[3]. وهذا ما حصل مع

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٢٥٢.
(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص: ٤٢.
(٣) سورة البروج، الآيات: ٤ ـ ٨.

أقوام مؤمنين عبر التاريخ، حيث تعددت أساليب القتل والتعذيب بوحشية فاقت التصور، إلى درجة أن نُشِّر بعضهم بالمناشير وهم أحياء، فعن جميل بن دراج، عن ابي عبد الله عليه السلام: «**وقد كان قبلكم قومٌ يُقتلون ويُحرقون ويُنشرون بالمناشير، وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردُّهم عما هم عليه شيء مما هم فيه**»[1]، وليس لهم ذنبٌ إلَّا الإيمان.

وكما يتبيَّن لنا من أحداث التاريخ، أنَّ أعظم بلية يواجهها المؤمنون رفضُ الكافرين لمعتقداتهم، وتصميمهم على ثنيهم عنها، وقد واجه الكفارُ الأنبياء بكل الأساليب العدوانية، فاتهموهم بالسحر والكذب والجنون. قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[2]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[3].

ووصل الأمر بنبينا نوح عليه السلام أن فقد السيطرة على ولده بسبب شدة كفر الكافرين وسيطرتهم، وعلى الرغم من دعوته لقومه ألف سنة إلَّا خمسين عاماً لم يستجيبوا له، وكانوا يمنعون أي واحد من أن يؤمن به، فأمره الله تعالى بصنع السفينة للنجاة بالقلة المعدودة من المؤمنين، وقد عبَّر نوح عليه السلام عن انسداد الأفق وتعنُّت الكافرين، بقوله كما ذكر في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص: ٢٤٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٤.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(١).

أمّا النبي ابراهيم عليه السلام فقد قرّر القوم إحراقه لأنّه يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، لكنَّ الله تعالى أنجاه بمعجزة منه، فجعل النار برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾(٢).

وأمّا موسى عليه السلام فقد أرهقه بنو إسرائيل بطلباتهم، فبعدما قهر سحرة فرعون بفضحهم وكشف سحرهم، وأراهم المعجزات، ونجاهم من فرعون، لم يستقروا على إيمانهم، وجذبهم العجل فرغبوا عبادته، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾(٣)، ثم غفر الله تعالى لهم، فأمرهم موسى بدخول فلسطين ومقارعة جبابرتها، لكنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٤)، فعذبهم الله تعالى بالتيه في الصحراء أربعين عاماً قبل أن ينجيهم.

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ٢٦ و ٢٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٨ ـ ٧٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

وأمّا عيسى عليه السلام فقد لاحقه اليهود وصمموا على قتله، فأنجاه الله تعالى منهم، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[1].

وأمّا سيد الرسل محمد ﷺ فقد نال من أهل مكة خلال ثلاثة عشر عاماً من بداية دعوته جميع أصناف البلاء، فلاحقه المشركون بإبعاد الناس عنه، وكالوا له التهم، وكانت زوجة عمه «أبو لهب» ترمي الأوساخ في طريقه، وجُرح في الطائف، وحوصر ومن معه في شِعب أبي طالب ثلاث سنوات حصاراً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً كاملاً، ثم صمَّم القوم على قتله، فأنجاه الله تعالى، ثم هاجر من مكة إلى المدينة المنورة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

ولم يهدأ للنبي ﷺ بالٌ في المدينة المنورة لمدة عشر سنوات إلى حين وفاته، حيث خاض المعارك المتتالية دفاعاً عن الدولة الفتية، وابتُلي بالمنافقين في داخل المدينة، وتحمل الكثير من

---

(١) سورة النساء: الآية: ١٥٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

قومه ومن الأعداء. وقد برزت اللحظات التاريخية التي عاشها النبي ﷺ مع المؤمنين في بعض غزواته، من شدة البلاء واجتماع الأعداء من كل حدبٍ وصوب، بمناجاتهم لله تعالى، وما وصفهم به القرآن الكريم بأنهم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

وأمَّا الإمام الحسين عليه السلام فقد قدَّم الانموذج المميز في التاريخ البشري عندما ضحى في كربلاء مع ثلة من أهل بيته وأصحابه، فقُتل ثلاثة وسبعون رجلاً وشاباً وطفلاً، وسبيت النساء والأطفال، لأنهم تمسكوا بإيمانهم ورفضوا الخضوع للحاكم الظالم يزيد، ومما خطب به الإمام عليه السلام في الطريق إلى كربلاء: «**إنَّه قد نزل من الأمر ما ترون، وأن الدنيا قد تغيَّرت وتنكرت، وأدبرَ معروفها، واستمرت جدًّا، فلم يبق منها إلَّا صُبابة كصُبابة الإناء، وخسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل، إلا ترون أن الحقَّ لا يُعمل به، وأنَّ الباطل لا يُتناهى عنه! ليرغَبَ المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلَّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلَّا برماً**»[2].

إلَّا أن عذابات الابتلاءات المختلفة تهون عندما يكون جزاؤها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص: ٣٠٥.

عظيماً عند الله تعالى، فعن الإمام علي ﷺ: «**على قدر البلاء يكون الجزاء**»[١].

وعنه ﷺ: «**إنَّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة**»[٢].

وعن أبي عبد الله ﷺ: «**إنَّ في كتاب علي أنَّ أشدَّ الناس بلاء النبيون، ثم الوصيون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنما يبتلي المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحَّ دينُه وحَسُنَ عمله اشتدَّ بلاؤه، وذلك أن الله عزَّ وجل لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبة لكافر، ومن سخف دينه وضعف عمله قلَّ بلاؤه، وإنَّ البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض**»[٣]

نتائج البلاء

تزداد أزمة الإنسان عندما ينظر إلى البلاء وحجمه بمعزل عن نتائجه، فالبلاء امتحان، وعلينا العمل لتجاوزه والنجاح فيه، لا أن نتوقف عنده أو نتفاعل مع مراراته، وإلَّا نكون قد فشلنا في الاختبار. وكلمَّا كان البلاء كبيراً كانت النتيجة كبيرة أيضاً بحسب الاستجابة، ففيها إيجابية كبرى مع النجاح، وسلبية كبرى مع الفشل في الاختبار. إذاً لا تسأل عن العقبات والتعقيدات والصعوبات التي تواجهك في

---

(١) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ٣٢٧.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٤، ص: ٢٣٥.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٢٥٩.

هذه الحياة الدنيا، فهي اختبار خارج عن إرادتك، والعبرة بالنتيجة بعد الصبر والتحمُّل والتوكل على الله تعالى. يدعونا الإسلام أن ننظر إلى المستقبل، في دنيانا وآخرتنا، عندها ننظر إلى الخوف على أنَّه اختبار مؤقت تأتي بعده المكافأة، وإلى المظلومية بأنَّها معبرٌ إلى الفوز بعد حين، فبدل أن يتحول البلاء إلى عقدة، نحوِّله إلى حالة معنوية تدفع الإنسان المؤمن إلى استشراف الإيجابيات من البلاء، والاندفاع إلى الأمام.

إنَّ وضوح الأهداف الواقعية والتكاليف المطلوبة من الإنسان تهوِّن من آثار التوقعات، ففي الوقت الذي دعانا الله تعالى فيه إلى الدعوة إلى الله تعالى، لنشر الخير والفضيلة، بالحكمة والموعظة الحسنة، لم يحمِّلنا مسؤولية النتائج طالما أنَّنا قمنا بما علينا، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[١]، فقد يتوفق البعض منَّا وتُثمر دعوته، ولا يتوفق البعض الآخر فلا تثمر دعوته، ومع ذلك فقد يكون أجرُ من لم تثمر دعوته أكبر ممن أثمرت، فالعبرة بالمجهود والظروف والهدف لا بحصرية تحقيق الهدف. ومع أننا مأمورون للحكم بما أنزل الله تعالى، لكنَّه هدف مرتبط باستجابة الناس، ولا تكليف لأحد بأن يُلزم الناس بالإيمان، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

﴿مُؤْمِنِينَ﴾[١]، إنَّنا غير معنيين بإلزام الناس بالقوة بأي اعتقاد أو سلوك، فنحن نتحمل مسؤولية طريقنا التي اخترناها بملء إرادتنا، ولو كره الكافرون، ولو كره المنافقون.

الاختبار موجه إلى الفرد لينجح في أداء تكليفه، ضمن دائرة قدرته، فهل ينجح في الطاعة مقابل المعصية؟ وهل ينجح في العلاقة مع الله تعالى مقابل العلاقة مع الشيطان؟ وهل ينجح في التعامل مع كل البلاءات كاختبار أم يتعامل معها بتمرد وسلبية؟ في نهاية المطاف، سينال الإنسان نتيجة أعماله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]، ولن يتمكن من الهروب من مسؤوليته، لذا عليه الاختيار بدقة ليحدِّد معسكره الذي يختاره، أو طريقه التي يسلكها، فهذا مسارٌ له بداية ونهاية، والطاعة لها بداية ونهاية، وكذلك العلاقة مع الله تعالى والإيمان به له بداية ونهاية، وذلك بحسب الاختيار إيجاباً أو سلباً.

بعبارة أخرى، الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بالآخرة، وهذا ما يصوِّب سلوك الإنسان برعايته لهذه النتيجة، فتتأثر أعماله بهذا الإيمان، ويصوبها كلما حاد عنه، ويرى الابتلاء امتحاناً له حسابه الأخروي. أمَّا الكفر فيحصر الحياة بالدنيا المليئة بالملذات والشهوات، التي يرغب الإنسان في أن يأخذ منها كل شيء، لأنَّها

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

بالنسبة إليه كل شيء، لا يردعه أي عمل يحقق رغباته، وبالتالي يفشل في الاختبار لعدم اهتمامه بالحساب الأخروي، ويتأثر فكره وسلوكه بهذا الاعتقاد، فهو في خطٍ آخر يختلف تماماً عن خط الإيمان، ولأعماله نتائج تختلف أيضاً عن نتائج أعمال أهل الإيمان.

الفصل الثالث

جهادُ النَّفس والعدو

معنى الجهاد

ارتبط مصطلح «الجهاد» بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، واتَّخذ معناه الخاص من استعماله في التعبير عن تكليف الإنسان في هذه الدنيا، وهو مأخوذ من الجُهْد، أي بذل الوُسْع والطاقة. والجهادُ والمجاهدة: اسْتِفْراغُ الوُسْعِ في مُدافعةِ ومواجهة العدُوِّ دفاعاً عن الدين. والعدوُّ الذي يعتدي، إمَّا شخصٌ أو جهةٌ تكون مواجهتهما بالقتال، وإمَّا النَّفْسُ الإنسانية التي تميل نحو الملذات المحرَّمة والشهوات فتكون مواجهتها برفض الانجرار إلى الفساد، فتحصَّل لدينا نوعان من الجهاد: جهاد العدو وجهاد النفس، أو ما ذكره الحديث الشريف: الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر.

روى أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعثَ سَرِيَّةً، فلمَّا رجعوا، قال: مرحباً بقومٍ قَضَوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهادُ الأكبر.**

قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟

قال: جهادُ النَّفْس.

ثم قال ﷺ: أفضلُ الجهاد من جاهدَ نفسَهُ التي بين جنبيه»[(١)].

أعطى الإسلام الأولوية والأهمية لجهاد النفس، لأنها الدائرة الأوسع والأشمل التي تؤثر على كلِّ مسار الإنسان، قال رسول الله ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه**»[(٢)]، فإذا نجح الفرد في ضبط نفسه وتوجيهها، استطاع أن يسيطر على سلوكه فيما يقرِّر، من دون أن تؤثر فيه العادات أو الإغراءات، فهو سيدٌ في قراره، وهذا ما ينعكس على علاقاته الثلاث مع ربِّه ونفسه ومجتمعه، وعلى كيفية مواجهته للحياة، وما جهاد الأعداء إلَّا نجاحٌ من نجاحات جهاد النفس، حيث يصبح جهادُ الأعداءُ مفردةً تفصيليةً من مفردات النجاح في جهاد النفس، فيعبِّر بجهاده للعدو عن وصوله إلى مرتبة الاستعداد للتضحية وتحمل الآلام والخسائر المحتملة، دفاعاً عما يؤمن به ويعتقده سبباً لصلاحه وأداءِ وظيفته الأسمى في هذه الحياة. وقد عبَّر الإمام الخميني(قده) عن طبيعة النجاح في جهاد النفس فقال: «فجهاد النفس(وهو الجهاد الذي يعلو على القتل في سبيل الحق تعالى)، هو في هذا المقام عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظاهرية، وجعْلِها تأتمر بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجودِ قوى الشيطان وجنوده»[(٣)].

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص: ٥٥٣.
(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص: ١٦٤.
(٣) الإمام الخميني(قده)، الأربعون حديثاً، ص: ٢٨.

وبما أنَّ حياة الإنسان مبنيَّة على مواجهة التحديات التي تحيط به من كل جانب، يتعيَّن عليه أن يسلك درب الجهاد في كل شيء، ليجاهد شيطان النفس، ووسوسة الصاحب، وظلم العدو، خاصة أنَّ حياته تنمو وتتطور وتواجه الظروف المختلفة والمتغيرات، ما يتطلَّب جهداً ومشقة، لذا طلب الله تعالى من المؤمن أن يجاهد في الله حقَّ جهاده، أي في كل شيء، ضمن المنهج القويم المتمثِّل بالدين، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[١].

إنَّ الجهاد الشامل على منهج الدين نجاحٌ دنيوي وأخروي، وقد جَعَلَ الخالق رسالات الأنبياء منهج هداية منذ خَلَقَ البشرية، فلا حرج في الدين لانسجامه مع فطرة الإنسان، الذي إذا ما طبَّقه يكون شاهداً بحسن عمله في يوم القيامة على الذين أساؤوا وأخطأوا، كما يكون الرسول ﷺ شاهداً على المؤمنين والناس كافة. هذه هي النتيجة التي تستحق الجهاد والتعب من أجلها في الحياة الدنيا. فصَّل أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة معنى هذه الآية الكريمة فقال: «**وجاهد في الله حقَّ جهاده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وخُض الغمراتِ للحق حيث كان، وتفقَّه في الدين، وعوِّد نفسك**

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

التصبُّر على المكروه، ونِعْمَ الخُلُق التصبُّر، وألجئ نفسَكَ في الأمور كلها إلى إلهك، فإنَّك تُلجِئُها إلى كهفٍ حريز، ومانعٍ عزيز»[١].

ولأنَّ دائرة الجهاد شاملةٌ للحياة، لا بدَّ من استخدام كل الأساليب المتاحة للجهاد، وذلك بمراعاة الظروف والقدرة، وما يتناسب مع تحقيق الهدف، لذا كان الجهاد باليد واللسان والقلب، وما يتفرَّع عنها من استخدامٍ للسيف والقلم والكلمة والوعظ والرفض النفسي وغيرها من تعابير المجاهدة، للمحافظة على الاستقامة في حياة الفرد.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه**»[٢].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**جاهدوا في سبيل الله بأيديكم، فإنْ لم تقدروا فجاهدوا بألسنتكم، فإن لم تقدروا فجاهدوا بقلوبكم**»[٣].

ولِمن اشتبه عليه معنى الجهاد، معتقداً حصريته بالقتال في سبيل الله تعالى، أوضحت الروايات سعة دائرة الجهاد في الحياة، فقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد من أصبح لا يهمُّ بظلم أحد**»[٤]، ولما جاء رجل إلى الإمام الباقر عليه السلام فقال له: إني ضعيفُ

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الوصية: ٣١، ص: ٦١٦.
(٢) مسند أحمد، ج٣، ص: ٤٥٦.
(٣) النعمان المغربي، دعائم الإسلام، ج١، ص: ٣٤٣.
(٤) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص: ٣٥٣.

العمل، قليلُ الصيام، ولكني أرجو أن لا آكل إلَّا حلالاً؟ فأجابه عليه السلام: «أيُّ الاجتهاد أفضلُ من عفَّةِ بطنٍ وفرج»(١).

أمَّا النتيجة الملازمة لهذا الجهاد الشامل فهو السعادة والاستقرار النفسي ووضوح الطريق، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بالهداية الواسعة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

لا مفرَّ للإنسان من المكابدة والكدح والمعاناة في هذه الحياة الدنيا، فهذه طبيعتها، وقد خلق الله تعالى الحياة الدنيا مسرح عملٍ وجهاد، فيها عيشٌ مؤقت وقصير، تتبعها حياة أخرى خالدة وطويلة، حيث يكون الحساب فيها على عمل الدنيا. وقد أجمعت الرسالات السماوية على هذه النظرة إلى الحياة، كما دلَّ العقل عليها، بوجود خالقٍ منظّم للحياة الدنيا، يعود إليه القرار في كل شيء، وقد أخبرنا بقراره بوجود الحياة الآخرة بعد حياة الدنيا. وبما أنَّ الدنيا مسرحُ عمل، لا يكفي الإيمان بالله تعالى مجرداً عن العمل، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

بل لا يكفي العمل من دون معاناة وصبر، فعلى المؤمن أن

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٧٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

يتقبَّل الاختبارات الصعبة والمؤلمة، وأن ينجح في تجاوزها بالصَّبر والتحمُّل، فالعمل الصالح لا يقتصر على اليسير منه، بل يشمل الصَّعب والعسير، من ضمن رؤية مركزية للسير على هديها اسمها: «سبيل الله». فلو تطلَّب سبيل الله تضحياتٍ جسام، وتحمَّلها المؤمن ليحافظ على هذا المسار، نجح في الاختبار الدنيوي، وفاز في جنة الآخرة. إنَّها عملية بناء الحياة الأفضل من رحم المعاناة ورفض الملذات والمنكرات، وهي التعبير الفعلي عن فوز المجاهد في سبيل الله، ليرتقي في سلَّم القبول، نحو الكمال الإنساني الذي تهون معه كل التضحيات، ولا يشعر المؤمن معه بأي خسارة، فكلُّ عطاء درجةٌ نحو الكمال، وكلُّ صبرٍ درجةٌ نحو الكمال، ومع الاقتراب من الكمال، تكون السعادة الحقيقية، التي تترجِم معنى الإنسانية التي أرادها الله تعالى لنا في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ولكنَّ الله يختبرُ عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدُهم بأنواع المَجَاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبُّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلُّل في نفوسهم، وليجعلَ ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه**»[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، ص: ٤٥٤.

اختيارُ المنهج بدايةُ الطريق

كيف يمكن أن ينجح الإنسان في مكابدته ومعاناته في هذه الدنيا؟ بما أنَّ المشقَّة حاصلة، والاختبارات كثيرة وشاملة لكل حياة الإنسان، والبلاءات متنوعة وغير محسوبة في أغلب الأحيان، وقدرة الإنسان محدودة، فهو لا يستطيع اختيار الأصلح من دون توجيه وإرشاد، لذا لا بدَّ من تحديد المنهج الأفضل الذي يهدي إلى الاستقامة والصلاح، ويستثمر المعاناة والآلام لمصلحة الفوز والنجاح، ويلبي متطلبات الإنسان الدنيوية، ويواكب عبورَهُ إلى الآخرة بزادٍ مُربحْ.

لا يمكن النجاح في مواجهة هوى النفس ورغباتها بطريقة عشوائية، ولا تسعُ حياتُنا القصيرة إجراء التجارب البشرية علينا لاختيار الأصلح، بل لا حاجة لها مع وجود المنهج الربَّاني الكامل، الذي يوفِّر لنا القواعد الصالحة، التي تختصر التجارب وتعفينا من الكثير من السلبيات.

فلنحسم ماذا نريد؟

هل نريد اللحاق بالملذات والشهوات التي تمضي سريعاً، وتبقى آثارها، وتترتَّب علينا مسؤولياتها؟ أم نريد تنظيم حياتنا بما يحقِّق لنا الاستقرار النفسي والمعنوي، ويعطينا الملذات المحلَّلة بحدودها وضوابطها، لنبقى متوازنين بين الدنيا والآخرة؟

هل نريد إطلاق العنان لجسدنا؟ أم أننا ملتفتون إلى إنسانيتنا التي تتطلَّب مراعاة التوازن بين الجسد والروح؟

ألم تعطنا التجارب البشرية درساً كافياً في ضياع أولئك الذين عاشوا الجسد وحده فأصابهم الخواء الروحي، وها هم اليوم بين باحث عن العودة إلى الدين، أو يائس من الحياة يتصرف بطريقة عشوائية، أو يتجه إلى الانتحار؟

أتت رسالات وحي السماء لتحدِّد لنا المنهج الإلهي، مختتمة تعاليمها بمحمد ﷺ ورسالته الكاملة الشاملة التامة: الإسلام، مقابل كل ما عداها من مناهج أرضية بشرية ناقصة وعاجزة، تشدها الرغبات والضعف، والتي يمكن جمعها تحت عنوان واحد: الهوى.

حدِّد منهجك، تعرف طريقك، وتتضح أمامك صورة البداية والنهاية. فالمنهج الإلهي هو الحلُّ الأمثل مقابل الأهواء البشرية، وقد دعانا القرآن الكريم إلى الاستقامة وفق ما أمر الله تعالى، وأن نعدل في حياتنا، سواءً آمن الناس أم لم يؤمنوا، فلكلٍ عمله، ولكلٍ حسابه، قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[١].

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.

إنَّ اختيار المنهج الإلهي يتلازم مع الأمور التالية:

١ ـ أن يكون الإنسان في حزب الله، أي في المسار الذي يرتضيه الله تعالى بكل مفاعيله وعلى رأسها الولاية لله ولرسوله وللذين آمنوا، إذ لا يمكن المحافظة على الاستقامة من دون النصرة لله تعالى، والاقتداء بالرسول ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1]. وقد نزلت هاتان الآيتان بحق أمير المؤمنين علي عليه السلام، عندما كان يصلي في المسجد، فأتاه فقير يطلب المساعدة أثناء ركوعه، فمدَّ الأمير عليه السلام يده وفيها الخاتم، مشيراً إلى الفقير ليأخذه، فكانت الآية التي تتحدث عنه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2]، وفي الآية التالية تأكيد بأن الاقتداء بالنبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، يؤدي إلى الغلبة بإذن الله تعالى.

٢ ـ أن يكون جزءاً من جماعة المؤمنين، فالجماعة تحمي الفرد وتحصِّنه وتساعده على نفسه، وتشكَّل البيئة النظيفة للنفس الإنسانية، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[١]، هذا الارتباط متلازمٌ مع الصبر معهم، وفي كل الأوقات، فلا تتركهم لحظة واحدة إلى الحياة الدنيا وزينتها، مهما بَلَغتْ هذه الزينة، ومهما بَلَغَ أتباع الهوى، فهؤلاء يصدون عن سبيل الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[٢].

٣ ـ أن يكون ثواب الآخرة حاضراً أثناء عمله، فتهون عليه التضحيات عندما يقارن بين اللذة العابرة والجنة الخالدة، ويكون واضحاً لديه بأنَّه يعمل للأصلح، ويصبر للأفضل، ويجاهد للثمن الأعلى وللخلود، فالآخرة حافز فعَّال في ضبط الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٣]. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**جاهد نفسك، واعمل للآخرة جهدك**»[٤]. وقال عليه السلام: «**ولبئسَ المتجرُ أن ترى الدنيا لنفسِك ثمناً، وممّا لكَ عند الله عِوَضاً**»[٥]، وهل يستبدل العاقل ما عند الله بما في الدنيا؟! وهل يُعرِض عما عند الله مقابل الثمن البخس والحقير في هذه الدنيا؟! لقد خاب من آثر الحياة الدنيا على الآخرة، وأفلح من وضع الآخرة نصب عينيه، وآثرها على الدنيا.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٦.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج١، ص: ٣٤.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٣٢، ص: ٨٧.

٤ ـ أن يُحَكِّم عقله مقابل هواه في كل أموره، فالعقل مرشدٌ وهاد، بينما الهوى مضللٌ ومفسد، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبةٌ بينهما، فأيما غلبَ كانت في حيِّزه»**[١]. فقضايانا تحتاج إلى حسم، وتعتمل في نفس الإنسان أفكار وقناعات ورغبات، فإذا ما اختار العقل وضع الأمور في نصابها، وإذا ما انجرفت نفسه نحو الهوى ضاعت بوصلة الطريق.

٥ ـ أن لا يكون هواه مقياساً ومنهجاً، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢]، حيث عبَّرت الآية عن الإله بالهوى، لأنَّ الضال قد حسم خياره بأن يعود إلى هواه في كل شيء. فالخلل في المنهج من بداية الاختيار، لا يُنتج إلَّا الفساد والانحراف والضلال في كل شيء، ولا قابلية معه للهدى، وهذا ما يختلف عن الخلل الذي يحصل في إتباع هوى النفس زلةً أو خطأً في بعض الأحيان، فالزلَّات يمكن التخلُّص منها بالتوبة، وبوجود المنهج الرادع الذي يذكرنا بالاستقامة، وبالعقل الذي يصوِّب مسارنا، أمَّا اتخاذ الهوى إلهاً وموجهاً، فهو السقوط المريع الذي تصعب النجاة منه.

٦ ـ أن لا يزيِّن سوء عمله، فهذا من إتِّباع الهوى، فليعترف

---

(١) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ٦٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

بخطئه بينه وبين نفسه، وليعالج الثغرات التي وقع فيها، وليعلم بأنَّ أزمات الإنسان من الزينة التي تُخفي الحقائق وتُبرز المظاهر المخادعة، فزينة الحياة الدنيا من الشهوات والملذات مغرية ومضللة، وتزيين العمل الفاسد بالبحث المضني عن محاسنه إخفاءٌ للحقيقة، فلنبتعد عن الزينة لنتجه إلى الحقائق، ما يسهِّل علينا اتخاذِ القرارات، لأننا نكون على بيِّنة من أمرنا، والفرق كبير بين من كان على بيِّنةٍ من أمره، ومن زُيِّن سوء عمله لمصلحة هواه، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[١].

٧ ـ أن يثق بهدي الله تعالى إلى سلوكِ منهجه القويم، وبنصره، فلا عطاء إلَّا من الله تعالى، ولا مكافأة إلَّا من عند الله تعالى، أمَّا الآخرون من الشياطين واتباعهم فلا يملكون نفعاً ولا ضراً، إنما يملكون الوسوسة والخداع والوعود الخاوية. ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، وهل يترك الإنسان البيِّنة الواضحة الصريحة لمصلحة الهوى الملتبس الخدَّاع؟ وهل يترك رحمة الله تعالى ليعيش الضياع والخسران؟ يسأل النبي صالح عليه السلام قومه عن النتيجة الخاسرة التي سيوصلونه إليها بدعوتهم المنحرفة ورفضهم لطاعة الله تعالى، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[1].

تربية النفس

اتضحت الطريق وهي «سبيل الله»، فكيف نقود أنفسنا لتسير عليه من بدايته إلى نهايته في خطٍ مستقيم؟ أولى الإسلام النفس الإنسانية عناية كبرى، لأنَّها محورُ الحركة والحياة، ومنطلقُ الخيارات، وسببُ الأعمال، وعمل على توجيهها وإصلاحها، وقرَّر عباداته لتهذيبها، وقد أثبت العلم الحديث أهمية فهمِ النفس البشرية، ورسمِ الضوابط الوقائية لتقويمها، والحلول العلاجية لإصلاحها، حيث تفرَّع عن دراسة النفس علم النفس بأقسامه المختلفة، كعلم النفس العام، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الأسري... وجميعها ينطلق من معرفة مفاصل النفس الإنسانية لتوجيهها نحو الأفضل، ومعالجة الأمراض الناشئة عن ظروفها المختلفة.

تحتاج النفس إلى تعليمٍ وترويض بهدف التزكية، فالعلم يوضح معالم الطريق، ويعرِّفنا حدود النفس وما يُصلِحُها وما يفسدها، أمَّا الترويض باتجاه الهدف السامي فهو تزكيةٌ للنفس من أجل صلاحها، وهذه هي المهمة العظيمة التي قام بها النبيﷺ في مكة المكرمة بوحيٍ من الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا

(١) سورة هود، الآية: ٦٣.

مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

تشبه النفس الحصان الشارد الذي يصعب ركوبه إذا لم تروِّضه، فإذا ما روَّضنا النفس وأمسكنا عنانها وضبطنا حركتها، أمكننا حمايتها من الانحراف وتوجيهها إلى الطريق السليم. ليس الأمر سهلاً ولكنَّه ليس عسيراً، فالإنسان يمتلك بفطرته القدرة التي تمكِّنه من قيادة نفسه، إلَّا أن المسار طويلٌ بطولِ الحياة، فتربية النفس ومتابعتها تحتاج إلى مواكبةٍ دائمة ومستمرة، لأننا ما دمنا أحياء، فسنتعرض في كل يوم للحق والباطل، للحلال والحرام، للاستقامة والانحراف، للملذات المحلَّلة والمحرَّمة، وعلينا أن نختار. فإذا ما تروَّضت النفس وتربَّت على طاعة الله تعالى، اختار الإنسان الحقَّ والحلال والاستقامة والملذات المحلَّلة، وإذا ما تُركت من دون تهذيب وتزكية، اختارت الباطل والحرام والانحراف والملذات المحرَّمة. ليس الأمر سهلاً لتكوين الشخصية المؤمنة المطيعة لربها، ففي حديث المعراج، عندما عرج رسول الله ﷺ إلى السماء، في وصفه أهل الخير وأهل الآخرة، قال ﷺ: «**يموت الناسُ مرةً، ويموتُ أحدُهُم في كلِّ يومٍ سبعين مرةٍ من مجاهدةِ أنفسِهم، ومخالفة هواهم، والشيطان الذي يجري في عروقهم**»[٢].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٧٤، ص: ٢٤.

ومع تحقيق النجاحات في سلوك طريق الطاعة، تُصبح مجاهدة النفس أكثر سهولة، حيث تتحوَّل الطاعة إلى نمطٍ وعادة، فكما يكون تغيير العادات السيئة صعباً ويحتاج إلى مجاهدة ووقت، كذلك يكون تغيير العادات الحسنة صعباً مع وجود إرادة المحافظة عليها، وهذا ما أكَّد عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال: «**لقاحُ الرياضة: دراسةُ الحكمة، وغلبةُ العادة**»[1]، فدراسة الحكمة تضع الأمور في نصابها وتبيِّن الحق من الباطل، والتغلب على العادة السيئة ينقِّي النفس والسلوك ليفسح في المجال أمام العادة الحسنة، وهما لقاحُ رياضة النفس لقيادتها نحو الفلاح.

من المفيد أن نسوقَ بعض التوجيهات التي تساعد في ترويض وتربية وتزكية النفس:

١ ـ المجاهدة الدائمة وفي كل حال، بحيث لا تخلو لحظة من حياة الإنسان برعايته لطاعة ربِّه فيما أمر، ومجاهدة نفسه إذا رغَّبتُه بالمعصية بمنعها، وهذه صفة من صفات العاقل، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**ينبغي للعاقل أن لا يخلو في كل حال من طاعة ربِّه، ومجاهدة نفسه**»[2]. فبهذه المجاهدة يملك الإنسان نفسه، ويقودها بدل أن تسيطر عليه وتسلبه إرادته، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**املكوا أنفسكم بدوام جهادها**»[3].

---

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص: ١١٣٦.
(٢) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ٥٥٥.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٨٩.

٢ ـ مجاهدة العدو لعدوِّه، وهو أسلوبٌ يُبقي الإنسان في حالة يقظة، فكما يتخذ المقاتل احتياطات الوقاية والإنذار من هجمات العدو، يكون حال المؤمن في الوقاية والإنذار بعدم الاطمئنان إلى أعداء النفس، وبهذا النمط من السلوك يصبح الإنسان قوياً في مواجهة الشهوات، ويقهرها بسهولة ويسر، لأنَّه في حالة استعداد، وقد حسم خياره بتحديد عدوه، ولا استكانة لهذا العدو.قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**جاهد نفسك على طاعة الله مجاهدةَ العدو عدوِّه، وغالِبْها مغالبةَ الضد ضده، فإنَّ أقوى الناس من قوي على نفسه**»[١].

٣ ـ إكراهُ النفس على فعل ما تكره، فالعبرة بفعل الصواب ولو كرهناه، والامتناع عن الخطأ ولو أحببناه، ولعلَّ ما نكره خيرٌ لنا، وما نحبه شرٌ لنا، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، فإذا ما كان مقياسنا فعل ما نحب بصرف النظر عن خطئه، وقعنا في هوى النفس، ولا يعني إكراه النفس على فعل ما تكره، أن تكون كلُّ أعمالنا مما تكرهه أنفسنا، بل هناك أعمالٌ كثيرة تحبها النفس، وهي في طاعة الله تعالى، وإذا ما عوَّدنا أنفسنا على الطاعة يصبح كل ما تقوم به النفس محبوباً لديها،

---

(١) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ٢٢٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

فالتعويد على تكرهه من أجل الحق، تربيةٌ للنفس وتأديبٌ لها. وفي تشجيعه للمؤمن في أن يُقبل على ما تكرهه نفسه، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أفضلُ الأعمال ما أكرهتَ نفسَكَ عليه**»[1]، ومن وصية له وصّى بها شريح بن هانئ، لما جعله على مقدمة الجيش إلى الشام: «**اتَّقِ الله في كل صباحٍ ومساء، وخفْ على نفسك الدنيا الغَرور، ولا تأمنها على حالٍ، واعلم أنَّك إن لم تَردع نفسك عن كثيرٍ مما تحبُّ مخافةَ مكروهه، سَمَتْ بك الأهواءُ إلى كثير من الضَّرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً، ولنزوتك عند الحفيظة(الغضب) واقماً (قاهراً) قامعاً**»[2].

٤ ـ العزوف عن الدنيا بما هي سبب للمحرمات، والإقبال على ما فيها من الطاعات، فالدنيا مسرح العمل، ولا يمكن التعاطي معها بطريقة سلبية، بل بإيجابية فيما ينفع، وبسلبية فيما يضر، ولعلَّ الآيات والروايات التي تواترت عن رفضِ الدنيا أوحت للبعض بحرمان النفس من كلِّ ما فيها، وهذا خطأٌ واضح، حيث حثَّنا الله تعالى أن نأخذ نصيبنا وحقَّنا من طيبات وحلال الدنيا، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]، فيكون العزوف المطلوب عن حرام الدنيا، أي عما يُخالف سبيل الله

---

(١) نهج البلاغة، ص: ٧٩٢.
(٢) المصدر نفسه، الوصية ٥٦، ص: ٦٩٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

تعالى، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«آفة النفس الولَهُ بالدنيا»**[١]، وقال عليه السلام: **«سبب صلاح النفس العزوف عن الدنيا»**[٢].

وهنا يجب أن يرسم الإنسان لنفسه حداً هو الرضا بحلال الدنيا ولو كان قليلاً، حتى ولو شعر معه بالحرمان بالمقارنة مع الآخرين، أو ترك ما في متناول يده من الحرامِ لمصلحة القليل في طاعة الله تعالى، لأنَّ القناعة مفتاح الصلاح، ومن لم يقنع بالقليل لا يُقنعه الكثير، ومن لم يقنع بنصيبه في الدنيا، ومدَّ عينيه إلى ما عند الآخرين، وقع في محذور الحرام، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«أعون شيء على صلاح النفس القناعة»**[٣].

٥ ـ الصوم، أو قلَّة الطعام والشراب، من العوامل المساعدة على تقوية الإرادة ومساعدة النفس، فعندما يمتنع الصائم عن الطعام والشراب يذبل جسده، وتقلُّ رغبتُه، ويزداد إقبالهُ على الله تعالى، ويتذكر الآخرة، ويعيشُ ضعفه البشري، ما يجعلُه أقرب إلى الله تعالى. فتأديبُ الجسد بحرمانه سلوكٌ مساعدٌ لتزكية النفس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«جوِّعوا بطونكم، واظمِئوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، وطهِّروا قلوبكم، عساكم أن تجاوزوا الملأ الأعلى»**[٤]، يؤكد هذا الحديث على النتيجة الفعَّالة لحرمان النفس

---

(١) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ١٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ص: ٢٨٢.
(٣) المصدر نفسه، ص: ١١٢.
(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص: ١١٣٧.

مع توفر القدرة لديها، وبهذا السبيل يرتقي الإنسان إلى درجاتٍ أعلى، فيصبح مسلَّطاً على نفسه ومالكاً لزمامها، يُصاحبُ ذلك مستوىً روحيٍ عظيم وكأنَّه في الملأ الأعلى. في المقابل فإنَّ كثرة الطعام والشراب مضرَّة، فهي تسبِّب التخمة، وتعطي الجسد المزيد من الحيوية، وتدفعه إلى المزيد من المطالب، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«كثرة الأكل والنوم يفسدان النَّفس، ويجلبان المضرَّة»**[1].

٦ ـ عدم الاستخفاف بالمعصية مهما صغُرت، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: **«ولا تأمن على نفسك صغير معصيةٍ فلعلَّك معذَّبٌ عليه»**[2].

٧ ـ حساب النفس، وإجراء جردة حساب يومية أو أسبوعية أو شهرية أو كلما دعت الحاجة، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام في نصيحته لعماله على الخراج: **«عباد الله، زِنوا أنفسكم من قبل أن تُوزنوا، وحاسبوها من قبلِ أن تُحاسبوا، وتنفَّسوا قبلَ ضيقِ الخناق»**[3]. يساعد حساب النفس على التوقف عند كل محطة في حياة الإنسان للإصلاح والتعديل ومعالجة الخلل، ودرس عوامل تقوية النفس، وما لم تكن هذه المحطات موجودة فقد يفوت قطار

---

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٥، ص: ١١٩.
(٢) نهج البلاغة، ص: ٣٠٥.
(٣) المصدر نفسه، الخطبة: ٩٠، ص: ١٨٢.

الإصلاح، وتتراكم السلبيات، أمّا مع وجودها، فأملُ التغيير يبقى قائماً، بلحاظ استحضار موقف الحساب يوم القيامة.

طبيعةُ النَّفس

تحمل النَّفس الإنسانية ـ كما فطرها الله تعالى ـ قابلتين: إيجابية تؤدي إلى الاستقامة والصلاح والتقوى، وسلبية تؤدي إلى الانحراف والفساد والضلال، وذلك بحسب المقياس الديني للإيجاب والسلب، أي أنَّ المولود صفحةٌ بيضاء، يرسم الأهل والمدرسة والمجتمع مضمونها، بحسب تعليمه وتربيته، ثم تتشكل لديه قناعات يستطيع معها تحديد خياراته فترة الشباب، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]. إذاً لا يمكن الحديث عن إنسان مؤمن أو مطيع لله تعالى بالفطرة، وآخر كافر عاصٍ لله تعالى بالفطرة، فالطاعة أو المعصية نتيجةٌ لتوجيهِ قابلية واختيار صاحبها لأحدهما.

يحدِّثنا القرآن الكريم عن أنواع ثلاثة للنفس: النفس الأمَّارة بالسوء، والنفس اللوَّامة، والنفس المطمئنة، والحقيقة أنَّه توصيف لما تكون عليه النفس بسبب خياراتها، وليس بسبب خَلْقِها.

أمَّا النفس الأمارة بالسوء، فهي التي تدفع صاحبها نحو السوء، بحيث تكون الأرجحية لديه للأمر بالسوء، أو الميل نحو السوء،

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

وهذا ما يحصل بطريقة إرادية غير قهرية، بعدما عوَّد نفسه على الألفة لطريق المعصية، فأصبح ينجذب إليها بسهولة، فلا يمنع نفسه منها، ولا يرفضها، ولا يتحداها، ولم يربِّ نفسه بما يساعده على توجيهها لتتمكَّن من رفض سلوك الحرام والمنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، فمن شملته رحمة الله تعالى، وتوفَّق لتربية نفسه وترويضها وتزكيتها، منع نفسه من الانجراف نحو السوء، خلافاً لمن لم يتوفَّق لذلك، فتتحول نفسه إلى النفس الأمَّارة بالسوء.

في مناجاة للإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «**إلهي أشكو إليك نفساً بالسوء أمارة، وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، . . . كثيرةُ العلل، طويلة الأمل، إنْ مسَّها الشَّرُ تجزع، وإنْ مسَّها الخير تمنع، ميالةٌ إلى اللعب واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تُسرع بي إلى الحوبة، وتسوِّفني بالتوبة**»[2]. يعلِّمنا الإمام عليه السلام في هذه المناجاة مكامن الخلل التي تجعل النفس أمارة بالسوء، كالمبادرة إلى الخطيئة، والاندفاع نحو المعصية، والميل إلى اللهو واللعب،... فهو لا يتحدث في الدعاء عن نفسه، إنما يوجهنا لما نطلبه من الله تعالى ليساعدنا على أنفسنا، كي لا تصبح أمَّارة بالسوء.

وأمَّا النفس اللوَّامة التي أقسم الله تعالى بها قائلاً: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٢) الإمام زين العابدين، الصحيفة السجادية، ص: ٤٠٣.

﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[(١)]، فقد فسَّرها قول رسول الله ﷺ في وصيته لابن مسعود: «**يا بن مسعود، أكثِر من الصالحات والبِّر، فإنَّ المحسن والمسيء يندمان، يقول المُحسنُ: يا ليتني ازددتُ من الحسنات، ويقولُ المُسيءُ: قصَّرت، وتصديقُ ذلك قوله تعالى:** ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[(٢)]. فالنفس اللوَّامة هي التي تلوم صاحبها مؤمناً كان أم كافراً، أمَّا المؤمن فتلومه على ما قصَّر عندما ترى جزيل الثواب، وأمَّا الكافر فتلومه على انحرافه وكفره عندما ترى جحيم العقاب، فاللَّوم نتيجة العمل لا قبله، وعلى الأرجح أن يكون في يوم الحساب فقط، وحتى لو كان في الدنيا كما في رأي بعض المفسِّرين، فهو بعد العمل وليس قبله.

وأمَّا النفس المطمئنَّة، فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[(٣)]، حيث يكون الاطمئنان ناشئاً عن الأعمال الصالحة في الدنيا، والرضا الذي تحقَّق لها بسبب الثواب الممنوح من الله تعالى في الآخرة، فالاطمئنان نتيجةً للعمل وليس قبله.

تحصَّل لدينا بأنَّ النَّفس تحمل قابلية الصلاح وقابلية الفساد، والإنسان هو الذي يوجهها على ضوء خياراته، فإذا وسوست له

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢.
(٢) الشيخ الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص: ٤٥٤.
(٣) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

نفسه تأمره بالسوء، وهذا جزء من الميل إلى الفساد والرغبة باتِّباع الهوى، لكنَّه يستطيع تحصين نفسه بالطاعة، عندها ينال رحمة الله تعالى، فلا يتحقَّق الأمر بالسوء، وإذا ما كانت النفس لوَّامة أو مطمئنَّة فهذا من نتائج عمله، إذ لا تحمل النَّفس صفة خاصة عند خَلْقِ الإنسان، فهي مجرَّدة، تحمل خيارات الإنسان وأعماله.

جهادُ العدو

ركَّز الإسلام على الجهاد بكل أبعاده، فأعطى أهمية كبرى لجهاد العدو، كما أعطى هذه الأهمية لجهاد النفس، بل اعتبر أنَّ الترجمة العملية لجهاد النفس تبرزُ في ساحة الجهاد، عندما يبذلُ المؤمن مالَه ونفسَه في سبيل الله تعالى، فلا يتعلَّق بشيء يربطه بالدنيا، وإنما يُعطي كل ما عنده، تعبيراً عن ذوبانه في سبيل الله تعالى، وكأنه التزم بعقد بيعٍ وشراء، يبيع من خلال نفسه وماله، أي كلَّ ما لديه، فيشتري الله تعالى ذلك بمنحِهِ الجنة، وهي النعيم الخالد الذي لا يضاهيه عطاء، فضلاً عن الدرجة العالية والمكانة الارقى للشهيد. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

لماذا نجاهد العدو؟ لأنَّ العدو يستخدم قوته وظلمه ليعتدي

(١) سورة التوبة، الآية : ١١١.

ويحتل، فإذا لم يواجهه أحد، فسيسيطر بقواته، ويفرض مشروعه وأفكاره، ويتحكم بالثقافة والسياسة والاقتصاد والتنمية، أي أنَّه سيسلب أصحاب الأرض حقوقهم ومعتقداتهم وحريتهم. وقد أثبتت تجارب التاريخ والحاضر بأنَّ الركون إلى العدو مفسدةٌ عظيمة، وخسارةٌ تتحمَّل نتائجها كل الأجيال، فكم من بلدٍ احتلَّه الاستعمار فغيَّر عقائده وهجَّر سكانه، وها هي الأندلس شاهد على ذلك، فقد تغيَّرت معالمها الإسلامية بالكامل، بفعل القتل والتهجير وتدمير الآثار الإسلامية وتغيير الدين بالاكراه وكذلك الأسماء... وها هو الكيان الصهيوني يحاول تثبيت نفسه، بعد أن هجَّر أربعة ملايين فلسطيني، واحتل كامل الأرض، وقطَّع أوصال المدن والقرى، وارتكب المجازر، وقام بالحروب...فإذا ما وقف المؤمنون مستعدين للقتل في سبيل الله تعالى، عوَّضوا نقص قوتهم بقوة إيمانهم، وفدوا بدماء بعضهم بلدهم وأجيالهم، ورسموا بجهادهم خط الرفض للظلم والاحتلال والعدوان، وهذا ما يؤدي إلى الصمود بالحدِّ الأدنى، وإلى النصر ومنع العدو من تحقيق أهدافه كنتيجة نهائية.

فالقتال في سبيل الله تعالى خيرٌ بكل المعايير، والخنوع شرٌ بكل المعايير، قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

قال رسول الله ﷺ: «**فمن ترك الجهادَ ألبسهُ الله ذلاً في نفسه،**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

وفقراً في معيشته، ومحقاً في دينه، إنَّ الله تبارك وتعالى أعزَّ أمَّتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها»[١].

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أمَّا بعد، فإنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنَّة، فتحهُ الله لخاصة أوليائه، وهو لباسُ التقوى، ودرعُ الله الحصينة، وجُنَّتُهُ الوثيقة، فمن تَرَكَهُ رغبةً عنه، ألبسهُ الله ثوبَ الذُّل، وشَمِلَهُ البلاء»**[٢].

ومن خطبة للإمام الحسين عليه السلام أثناء توجهه إلى كربلاء: «**ألا ترونَ أن الحقَّ لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه! ليرغبَ المؤمنُ في لقاء الله مُحِقّاً، فإني لا أرى الموت إلَّا سعادةً، والحياة مع الظالمين إلَّا بَرَماً»**[٣].

نقلتْ لنا كتب السيرة تجربةً للنبي صلى الله عليه وآله مع أصحابه، في قرار ونتائج الجهاد في أول معركة خاضها المسلمون في المدينة المنورة، وهي معركة بدر الكبرى، حيث كان المسلمون بين خيارين:

الأول: أن يغزوا قافلةً لقريش، تحمل الأموال والتجارة والمؤن، وعليها أربعون رجلاً، وهي غير قادرة على القتال، وبمهاجمة القافلة، يستردُّ المسلمون بعض حقوقهم وأموالهم، وبَدَلَ

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص: ٦٧٣./ السنبك: طرف الحافر.

(٢) نهج البلاغة، من الخطبة: ٢٧، ص: ٧٥.

(٣) تاريخ الطبري، ج٤، ص: ٣٠٥./ أبو مخنف، المقتل، ص: ٨٦.

دُورِهم التي أُخذت منهم بعد هجرتهم من مكة المكرمة، ويستطيعون السيطرة على القافلة من دون خسائر أو معاناة.

الثاني: أن يواجهوا جيش قريش، الذي ناهز عدده الألف مقاتل، بينما كانت قدرة المسلمين أقل عدداً وعدة، فقد نتج عن استعداد المسلمين تهيئة ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً، أي ثلث عدد المشركين، ومن الطبيعي أن تؤدي المعركة إلى سقوط الشهداء والجرحى.

كان بعضُ المسلمين يميلون إلى عدم القتال، علماً بأنَّها محطَّة مفصلية، ستترك آثارها على الفريقين، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، فبعض المسلمين يرغبون غنيمة قافلة قريش وهي غير ذات الشوكة أي ليس فيها قتال، مقابل جيش قريش الذي يتطلب قتالاً، إلَّا أنَّ رسول الله ﷺ حسمَ الموقف، فجَرَت معركة بدر الكبرى، التي أسَّست للانتصارات اللاحقة، وقوَّت شوكة المسلمين، مقابل اهتزاز قدرة قريش.

تكرَّر هذا الأمر بتفاصيل مختلفة في زماننا الحاضر، فدعا البعض إلى مساومة إسرائيل على السلام المزعوم، والتنازل عن الأرض، تحقيقاً لبعض المكتسبات من دون قتال ومعاناة، ودعا البعض الآخر إلى المقاومة ورفض إملاءات العدو والدول الكبرى،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.

وذلك لتحرير الأرض، وإعادة الحق السليب إلى أهله وأصحابه، فظهر للملأ فشل المساومة وانتكاساتها المتكررة منذ ستين عاماً عندما احتلت إسرائيل فلسطين، في مقابل نجاح المقاومة الإسلامية في تحرير أرض لبنان، وإضعاف قدرة الردع الإسرائيلي، وبث الأمل باستعادة فلسطين السليبة بالمقاومة. فنتائج جهاد العدو أشرف وأفضل مهما كانت التضحيات.

وهنا نفهم كلام الإمام الخميني(قده) عندما أعلن قاعدته المشهورة: «الدم ينتصر على السيف»، لأن الدم المغموس بالحق والجهاد أقوى وأصلب من السيف المعتدي والظالم، ولا بدَّ للشعب الراغب بالحرية والتحرير والاستقلال أن ينتصر مهما كانت الصعوبات، شرط أن يجاهد ويبذل في سبيل الله تعالى، وهو ما فعله الشعب الإيراني المجاهد عندما واجه الشاه ومَنْ وراءه، وقدَّم التضحيات والشهداء، فأزاحه عن عرشه، وحكمت إيران باسم الإسلام، بانتصار الثورة الإسلامية المباركة على يد الإمام الخميني(قده). وهو ما فعله الشعب الفلسطيني المجاهد، وما حصل من أسطورة صموده في غزة أمام الهمجية والوحشية العدوانية الإسرائيلية عليه.

المرأة والجهاد

«ليس على المرأة جهاد وقتال في ساحة المعركة، إنما تقع المسؤولية على الرجل، وتكون مساهمتها في التعبئة والدعم

وغيرهما من دون النزول المباشر إلى الميدان إلَّا في حالات استثنائية. والواضح أنَّ القدرة الجسدية عند الرجل هي الأساس في هذا التشريع، فهو يتحمَّل الصعاب ويقسو في محاربة الأعداء، وهذا ما لا ينسجم مع رقة ولطافة المرأة وضعف بنيتها الجسدية التي لا تتحمل أوزار القتال. إنَّه موقفٌ موجَّه لعامة النساء حتى لو وُجد منهن من يتميزن ببنية جسدية قوية، فالتشريع قد لحظ الخطَّ العام لتكليف المرأة.

ولا داعي لأن تعيش المرأة حسرة عدم المشاركة في القتال، فالمقامُ الرفيع مرتبط بالتكليف بحسب القدرة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ومن قامت بتكليفها المقرَّر وصلت إلى الدرجات الرفيعة وربحت الأجر العظيم.

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية أنها أتت النبيﷺ وهو بين أصحابه، فقالت: **بأبي أنت وأمي إني وافدة النساء إليك، واعلم ـ نفسي لك الفداء ـ أنَّه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلا وهي على مثل رأيي. إنَّ الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنَّا معشر النساء محصورات مقسورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنَّكم معشر الرجال فُضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في**

سبيل الله، وإنَّ الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربَّينا لكم أولادكم، فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبيﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟

فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أنَّ امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

التفت النبيﷺ إليها، ثم قال: «انصرفي أيتها المرأة وأَعلِمي مَنْ خلفك من النساء: أنَّ حُسن تبعل احداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتِّباعها موافقته، يعدل ذلك كله»، فأدبرت المرأة وهي تهلِّل وتكبِّر استبشاراً»[١].

عندما تقوم المرأة بتكليفها في الميادين المختلفة تكون مجاهدةً في سبيل الله تعالى، فهي تجاهد نفسها وتجاهد في مواجهة الأعداء، ولها مساهماتها في دفع الاولاد والاخوة والزوج إلى المعركة لقتال العدو عسكرياً، وتضميد الجراح، وتحمُل النتائج، وهذه مكانةٌ عظيمة لها، فلا حاجة لافتعال الموقف أو الحضور للمرأة في أي موقعٍ كيفما كان، لأن المطلوب أن تكون في الموقع الذي تَبرعُ فيه وينسجم مع قدراتها وتكليفها، وهي في موقعها تعطي ما لا يعطيه الرجل، ولنا أسوة حسنة في أداء السيدة الزهراء عليها السلام وخطبتها

---

(١) المؤلف، من كتاب «حقوق الزوج والزوجة»، ص: ٦٠ ـ ٦٢.

الشهيرة أمام كبار الصحابة، والسيدة زينب عليها السلام وموقفها في كربلاء وما بعدها، وغيرهما من النساء المجاهدات في سبيل الله تعالى.

إنَّ أداء المرأة لدورها يحقِّق لها الأجر والثواب، على قدم المساواة مع الرجل، وذلك بحسب استحقاق كل منهما، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾(١).

المؤمنون والمؤمنات متعاونون بتكافؤ لنصرة الحق، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢). بل يمكن أن تتفوق المرأة على أقرانها وكذلك على الرجال بالتقوى، حيث لا عبرة للجنس وإنما للإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

لقد رأى العالم بأسره اليوم، كيفية تَحرُّك النساء المسلمات

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الملتزمات في الميدان السياسي، حيث يتَّخذن المواقف ويدافعن عنها، ويتابعن جهاد المقاومين بالمساهمات المختلفة. وقد «استطاعت الأخت والأم والزوجة والبنت أن تقدِّم نموذجاً مهماً في تلقِّي معنى الشهادة، وهذه ميزةٌ يجب التركيز عليها، فالمعروف بأنَّ عاطفة الأمومة والأخوة والبنوة والزوجية غالبة بشكل عام، وخاصة في مجتمعاتنا، إلى درجةٍ تمنع الرجال عادة من الإقبال على الجهاد والتضحية، بحيث تشكِّل هذه العاطفة عائقاً في الإقدام على العمل الجهادي. لكن ما رأيناه في ساحتنا الجنوبية وفي كل المناطق اللبنانية التي شاركت ورفدت المقاومة وقدَّمت لها، أنَّ هذه العاطفة تألَّقت بالإيمان بالله تعالى فكانت أقوى من العاطفة الشخصية، وعلى الرغم من آلام تضحيات الأحبة، فقد سيطرت الأمهات والزوجات والأخوات والبنات على مشاعرهن، وأبرزت الافتخار بعطاءات الأبناء والأزواج والأخوة، وهذا مالم يكن مألوفاً على مستوى الواقع، ولذا كان موقف النساء في تلقِّي أخبار الشهادة مفاجئاً وعظيماً»[١].

نتائجُ الجهاد

خيراتُ الجهاد بنوعيه: الأكبر والأصغر، لا تُحصى ولا تُعدُّ، وهي تنعكس على الفرد والجماعة، وتؤسس للمزيد من المكتسبات الدنيوية، فضلاً عن الهداية العامة التي يوفِّق لها الله تعالى في أمور الدنيا، والثواب المُرضي في جنة الخلد في الآخرة.

(١) المؤلف، من كتاب «مجتمع المقاومة»، ص: ٦٢.

نستعرض بعض نتائج الجهاد، التي أشارت إليها الآيات والروايات، وأثبتتها الوقائع العملية:

١ ـ **الهداية**: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، حيث يُنتج طريق الجهاد سُبُلَ الهداية إلى الخير، فمن جاهد نفسه امتلك زمامها، كما قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا أهواءَكم تملكوا أنفُسكم**»[٢]، ومن امتلك زمام نفسه وجهها إلى الطاعات، ومنعها من المعاصي، فجهاد النفس هدايةٌ إلى الصواب. ومن جاهد في سبيل الله، فتح الطريق إلى حماية أرضه، ومنع العدو من تحقيق أهدافه، واكتشف نقاط قوته وضعف عدوِّه، وعمل على تأسيس قدرة المؤمنين الدفاعية التي تحمي معتقداتهم وحقوقهم، وهذه هداية إلى تثبيت دور الإنسان وحقوقه. فلا حصر للأبواب التي تنفتح مع الجهاد باتجاه الهداية.

٢ ـ **الحكمة**: عندما يسيطر الإنسان على نفسه يملك زمام توجيهها، فيصبح عقلُهُ قادراً على الاختيار بفعالية أكبر، وهذا ما يؤدي إلى غلبة العقل على تصرفاته، فيتصرف بحكمةٍ ورويَّة، قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا أنفسكم على شهواتكم تحلُّ قلوبَكم الحكمة**»[٣]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**جاهد شهوتك،**

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) الريشهري، ميزان الحكمة، ج١، ص: ٤٥٥.

(٣) المصدر نفسه.

وغالب غضبكَ، وخالِف سوءَ عادتِك، تزك نفسك، ويكُمل عقلك، وتستكمل ثواب ربك»[(١)].

٣ ـ **الفلاح**: الجهادُ فلاحٌ ونجاح، وله كرامةٌ وموقعية، ويستبطنُ الخيرات الكثيرة، وصاحبه بمنزلة بر شهيد، فمن سلك مسلك الجهاد بنوعيه فاز، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

وعن الرسول ﷺ: «**جاهدوا تغنموا**»[(٣)].

وعن الإمام علي عليه السلام: «**إنَّ المجاهد نفسه على طاعة الله وعن معاصيه عند الله بمنزلة برّ شهيد**»[(٤)].

٤ ـ **النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٥)]، وما فائدة الدنيا للإنسان إن لم تكن سبباً لربحه وفوزه!

---

(١) الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص: ٢٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٨.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص: ٨.
(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج١، ص: ٤٥٢.
(٥) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٣.

وهل هناك أهم من هذه التجارة مع الله تعالى التي تُعطي النصر الدنيوي والجنة الأخروية؟ وهل توجد مكاسب لأحد في غير هذه الطريق؟ إنَّ الظالم يبطش ويؤذي ويغنم ويسيطر، لكنَّه يموت فيترك تاريخه الأسود، ولا يهنأ في دنياه، ثم يُحاسب على فعله في يوم القيامة.

٥ ـ **استمرارية الحياة**: ينتقل الإنسان عند موته ودفنه في قبره إلى عالم البرزخ، كمرحلة وسيطة بين الدنيا ويوم القيامة، فإذا ما كان من الذين قُتلوا في سبيل الله، تعيش نفسُهُ حياةً مريحة مطمئنة، حيث يرزقه الله تعالى الخيرات التي تهيئه لخيرات الجنَّة، ولكنَّ الناس لا يشعرون بهذه الحياة، حيث يفنى الجسد، وتبقى النَّفس، فيكون حالها كما ذكر القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

٦ ـ **ارتفاع المسؤولية**: يشمل الحساب كل ما اجترحه الإنسان في هذه الدنيا، حيث يُدوَّنُ كل شيء في صحيفة أعماله، حتى أنَّ الكفار يضجُّون يوم القيامة من الدقة المتناهية في تسجيل أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١]. وسيحاسب الإنسان على ما يحصل عليه عن طريق الحلال أيضاً، كيف تصرَّف به؟ هل أحسنَ أو أساء؟ هل أسرفَ أو قتَّر؟ ... لذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في صفة الدنيا: «**ما أصِفُ من دارٍ أولُّها عناء، وآخرُها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب**»[٢]، لكنْ عندما يكون جهاده وسلوكه في سبيل الله تعالى، فسيحميه هذا السبيل من الانزلاق والانحراف، وسيملأ صحيفة أعماله بالخيرات، ولذا ترتفع عنه المسؤولية، ويثاب على ما أنجزه في دنياه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كلُّ نعيمٍ مسؤولٌ عنه العبد يوم القيامة، إلّا ما كان في سبيل الله تعالى**»[٣].

الاستعداد للمواجهة

المواجهة قائمة بين الخير والشر منذ بدء الخليقة، فها هو قابيل ابن آدم عليه السلام يقتل أخاه هابيل لأن الله تعالى لم يقبل منه قربانه، ذلك أن قابيل قدَّم ما فَضُلَ عنه وهو بلا قيمة قربةً إلى الله تعالى، بينما قدَّم هابيل أفضل ما عنده وهو بحاجة إليه، فتقبَّل الله تعالى من هابيل لأنَّه يستحق ذلك، ولم يتقبَّل من قابيل، فدفع الحسد والطغيان بقابيل أن يقتل أخاه، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٢) نهج البلاغة، من الخطبة: ٨٢، ص: ١٤٥.
(٣) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١١، ص: ٧.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

كيف للمؤمنين أن يحموا أنفسهم في مواجهة العدوانية الظالمة؟

وكيف يردعون الكفار ليوقفوا غيَّهم وطغيانهم؟

وهل تستقيم حياة المؤمنين إذا كانوا ملاحقين ومطاردين طوال فترة حياتهم على هذه الأرض؟

وما العمل عندما لا تنفع النصيحة والصفح في منع الاعتداءات المتلاحقة من الأعداء؟

لا خيار أمام المؤمنين إلَّا الاستعداد للمواجهة، وردع الكفار بالجهاد، بل هي مسؤوليتهم في حماية حقوقهم، وإنما يأتي هذا الخيار بعد اليأس من كل الجهود المبذولة ما قبل المواجهة، وبعد إصرار الكفار على قهر المؤمنين وإذلالهم وسلب حريتهم وخياراتهم. وقد لاحظنا كيف صبر المؤمنون الأوائل مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً، على الرغم من التعذيب والتهجير والحصار وقتل البعض منهم، ثم هاجروا من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ومع ذلك استمر الكفار بمطاردة وإيذاء المؤمنين، فجاء الأمر الإلهي بالسماح للمؤمنين في أن ينتقلوا من الصبر إلى القتال بعد أن بلغ الظلم مداه، ولم يعد متاحاً أمامهم أي حل آخر، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُـلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وليعلم المؤمنون بأنهم منصورون، وليطمئنوا لذلك، فالقانون الإلهي على الأرض بأن ينتصر أصحاب الحق على أصحاب الباطل، لأنهم يملكون الأهلية والمشروعية لذلك، وقد وعدهم الله تعالى بالنصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٢). وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

فالنصر من عند الله تعالى ولا ناصر غيره: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤).

إنَّ فرص النصر الإلهي للمؤمنين كثيرة وميسَّرة، حيث يتوفر لهم الدفع المعنوي الذي يعوِّض لهم ضعفهم المادي، فعلى الرغم من قلة المؤمنين في المواجهة الأولى في المدينة المنورة في معركة بدر، إذ لم يتجاوز عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، بينما وصل

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ و ٤٠.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

عدد الكفار إلى ما يزيد عن تسعمائة وخمسين رجلاً، أي ثلاثة أضعاف عدد المؤمنين، فضلاً عن الفوارق الكبيرة في سلاح الكافرين وإمكاناتهم بالمقارنة مع إمكانات المؤمنين، حقَّق الله تعالى النصر للمؤمنين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١)، وبلغت قوة المؤمنين عشرة أضعاف قوة الكافرين بإيمانهم ومعنوياتهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

لكن يتوجب على المؤمنين بذل الجهد وإعداد العدة اللازمة للمواجهة، فلا يمكن الاتكال على النصر الإلهي بانتظاره وهم قاعدون، ولا يمكن تحقُّقه من دون قيام المؤمنين بمسؤولياتهم، وتوفير المقدمات قدر استطاعتهم، والعمل على تطويرها، وانتهاز الفرص المناسبة، وعدم الاستسلام مهما بلغت حجم الضغوطات، بمحافظتهم على إيمانهم والتزامهم، وصبرهم على الأذى في سبيل منهجهم المستقيم، وهنا تظهر قيمتهم الإنسانية، فالإنسان لا يحيا سعيداً بالخبز والطعام، وإنما يحيا بإيمانه واستقامته حياة نظيفة ومشرقة، وهذا ما أراد الرسل والأنبياء تربية الناس عليه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

إن تنصروا الله ينصركم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[١]، حيث يتحقق نصر الله تعالى بإتباع منهجه، والدعوة إليه، والدفاع عنه، والتقيد بحلاله وحرامه، والعمل لتحقيق العدل ورفض الظلم والطغيان، فإذا ما تم اختيار هذه الطريق يتحقق نصر الله للمؤمنين كنتيجة لأدائهم الصالح والمستقيم، بل يثبت أقدامهم بنصرٍ يحمل طابع الثبات والاستمرارية بكل نتائجه المعنوية والمادية، وما دام المؤمنون متمسكين باستقامتهم، يكون نصر الله لهم جاهزاً، فالله تعالى لا يُعطي النصر منحة من دون جهد وجهاد، لأنها إرادته في إعمار الكون وفق قانون البذل لتحقيق النصر، الذي يكون مشفوعاً بالتسديد الإلهي.

لا يستخفنَّ أحد بأهمية وقيمة المنهج الإلهي في تحقيق النصر، إذ يحمل دينُ الله تعالى كل عوامل التعبئة النفسية والمعنوية التي تزيد من قدرة المؤمنين وتدفعهم إلى الأمام، وفيه صوابية المسار بإقناع العقل البشري بخيار الحق واستحقاقه للدفاع عنه، ويدعمه سلوك النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام في تجاربهم الغنية لهداية البشرية، وهذا ما يؤدي إلى تكوين الجماعة المؤمنة التي يطلق عليها القرآن الكريم تسمية «حزب الله»، وهي الجماعة الغالبة والمنصورة بإذن الله تعالى، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٢].

---

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

إذاً، المطلوب إعداد العدة وعدم التراخي، فلا يستقيم الإيمان في حياة الناس إن لم يدافع المؤمنون عنه في مواجهة الكافرين، ولا عذر لأحدٍ في إدعاء الضعف بالمقارنة مع إمكانات الكافرين، إذ لا بدَّ من بداية، والبداية تكون ضعيفة، لكنَّ الإرادة والتصميم يؤديان إلى نمو القدرة مع الزمن، ولم يطلب الله تعالى منا أن ننافسهم بإمكاناتهم لنتفوق عليهم! بل أتاح لنا أن نبذل قدر استطاعتنا، وهو الكفيل بنصرنا عليهم، إذا ما كُنَّا صادقين، وبذلنا ما في وسعنا، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1]. يدلِّل هذا التوجيه للإعداد بحسب الاستطاعة على رفض الاستسلام، وأنَّ الإعداد يفتح أبواباً لا نعلمها، فيسبِّب الخير الكثير والنصر للمؤمنين. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فلمَّا رأى الله صدقنا، أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقرَّ الإسلام**»[2].

علينا أن نضع النصر نصب أعيننا دائماً، فهو متحقق لا محالة ولو بعد حين، وإذا ما تأخر فلعلةٍ فينا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[3]. ربما كان عددنا قليلاً جداً فلنعمل على تكثيره، وربما كانت عدَّتنا غير كافية فلنعمل على

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) نهج البلاغة، من كلام له ٥٦، ص: ١١٩.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

تطويرها بما يتناسب مع الحد الأدنى المطلوب، وربما لم نرتِّب أولوياتنا في الحياة بشكل صحيح فلننتبه لهذه الأولويات ليساعدنا ترتيبها في التهيئة لمقدمات النصر، وربما لم يحن أوان استحقاقه. إنَّ الوعد الإلهي بنصر المؤمنين محسوم، فمتى يكون المؤمنون جاهزين له؟

عندما نرى الفاسدين والظالمين مسيطرين في أغلب حقبات التاريخ وعلى امتداد الكرة الأرضية، فذلك لعدم توفر العوامل الكافية لينتصر المؤمنون، وبما أنَّ معادلة النصر مرتبطة بمقدمات، فعندما لا تتوفر هذه المقدمات لا يتحقق النصر. ولا تخفى سهولة الانحراف، وسيطرة الأنا، وسرعة انغماس الإنسان في شهوات الدنيا، واتِّباع الشيطان، فقد أخبرنا الله تعالى عن ظاهرة كثرة الذين لا يؤمنون، مبيِّناً أنَّهم لا يؤمنون على الرغم من أن الحق من عند الله تعالى الخالق الأحد، الذي أنزل الكتاب هادياً ودليلاً: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[١]، ولا يُحكِّمون عقولهم بشكل صائب، مع أنَّهم يرون عظيم خلق الله للكون والحياة والإنسان: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[٢]، ولا يشكرون الله تعالى على ما وهبهم من نِعَمِهِ بل يجحدون بها، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٣.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[١].

وليس لنا أن نُفاجأ أو أن نُحبَط، طالما أنَّ ما يجرى منسجم مع القانون الإلهي على الأرض، في أن تكون للناس خياراتهم، ولو نتج عن ذلك كثرة الذين لا يؤمنون، ولا يعقلون، ولا يشكرون...فإلى جانبه سنَّةٌ إلهية حتمية في نصر المؤمنين وتثبيتهم، ووعدهم بأن يسود العدل على الأرض على أيديهم، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢]، وأنه سيظهر في آخر الزمان رجل من آل محمد ﷺ، هو الإمام المهدي(عج)، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تُملأ الأرض ظلماً وعدواناً، ثم يخرج رجل من عترتي يملؤها قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وعدواناً**»[٣].

مسؤوليتنا أن نهتم بفلاحنا ونجاحنا ونصرنا ورضا ربِّنا، فلا ننساق مع المنحرفين والظالمين والكافرين، ولا نحتجَّ بكثرتهم

(١) سورة غافر، الآية: ٦١.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) الطبري، دلائل الإمامة، ص: ٤٦٧./ مسند أحمد، ج٣، ص: ٣٦.

للاستسلام، فكل واحد منّا يتحمل مسؤوليته بمعزل عن الآخرين، حيث ستبرز نتائج أعماله في الدنيا، كما سيُحاسب في يوم القيامة على ما اجترحت يداه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1]، وهنا يبرز الفائزون الذين تجاوزوا امتحان الدنيا مهما كان صعباً، فينصرهم الله تعالى في الأرض، كما يكافؤهم في الآخرة.

ليست المواجهة حصرية بين المؤمنين والكافرين، فالمواجهات كثيرة بين الكافرين أنفسهم، وذلك لتضارب مصالحهم وأنانياتهم، فقد غزا زعماءٌ لدولٍ دولاً أخرى، وجرى قتالٌ عنيف بينهم، وسقطت أمبراطوريات وانتعشت أخرى، وكان الدافع الأساس هو السيطرة والمال والخيرات، ولا يخفى بأنَّ هذه المواجهات تخفف من الضغط على المؤمنين، وتريحهم في فترات من الزمان، ما يسمح لهم بالتقاط الانفاس والابتعاد عن دائرة الضوء والضغط من أجل الاستعداد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

النصرُ بتحقيق الأهداف

يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن النصر: النصر العسكري، فإذا لم تكن الظروف مؤاتية لتحقيق هذا النصر، وقفت الجماعة أمام احتمالين: إمَّا أن تستسلم وتلغي وجودها لمصلحة الطرف المقابل، وبالتالي أن تعترف له بالأولوية والحق على الرغم من الظلم والفساد، وإمَّا أن ترفض وتواجه وتتحمَّل أعباء المواجهة غير المتكافئة، التي تؤدي إلى الشهادة، مترافقة مع فضح الظالمين، ما يؤسس لسقوط مشروعهم.

ولعلَّ أوضح مثال تاريخي لهذه الحالة ما حصل من مواجهة في كربلاء، بين الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وبين جيش الخليفة الماجن يزيد، ما أدَّى إلى شهادة الإمام الحسين عليه السلام ومن كان معه. وفي قراءة سريعة لمسار الأمور: تسلَّم الإمام الحسين عليه السلام الإمامة من أخيه الإمام الحسن عليه السلام في السنة الخمسين للهجرة أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبقي مهادناً، لأنَّ الظروف الموضوعية لا تساعد على الثورة، ولا تتطلب مواجهة استثنائية إنقاذية للمشروع الإسلامي، إلى أن مات معاوية بعد عشر سنوات، وأوصى لولده يزيد الفاسق الفاجر بالخلافة، فما كان من يزيد إلَّا أن طلب من واليه على المدينة أن يأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام، فإنْ رفض فعليه قتله.

إنَّ البيعة ليزيد تعني إقراراً بقيادته على المسلمين، على الرغم من فساده وخطره على الدين والدولة، وإسقاطاً لمسؤولية رفض

الانحراف والفساد، ما يؤسس لانحراف تمتد مفاعيله عبر الأجيال، فكان لا بدَّ للإمام الحسين عليه السلام من خيارٍ بين خيارين: الاستسلام أو المواجهة، الذل أو سل السيف، وهذا ما صرَّح به في خطبته الثانية في عاشوراء: «**ألا وأنَّ الدَّعيَّ ابن الدَّعي، قد ركز بين اثنتين، بين السَّلة والذلَة، وهيهات منَّا الذلَّة**»[١].

«لا بدَّ من هزة تحصل في الأمة لتوقظها من سباتها وغفلتها، لا بدَّ من اندفاعة مدوِّية تُسمعُ المدن والأطراف، لا بدَّ من نهضة تضع الجميع أمام مسؤولياتهم، لا بدَّ من موقف يشكل الحد الفاصل بين الاستقامة والانحراف، بين الأصالة والزيف، بين المشروع والمنكر. مثَّلت كربلاء الشهادة كما حصلت بكل تفاصيلها وجزئياتها الحلَّ الوحيد لتحقيق الهدف، وقد تحقق هذا الهدف، فالأمة استيقظت، وأصبحت معالم الطريق واضحة، وتنقَّت أطروحة الإسلام من زيف التطبيق المنحرف، وسُجلت حيوية جديدة لمصلحة هذا الدين، فشكلت نهضة الحسين عليه السلام خط الدفاع الضروري لاستمرارية الرسالة الإلهية»[٢].

«البيعة هي المقابل للشهادة، وهي بحسب الظروف المحيطة بها تُجهز على البقية الباقية من أمل الإصلاح الذي يمثله الإمام المعصوم. وقد كان يزيد بحاجة إليها لإضفاء المشروعية على

(١) ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف، ص: ٥٩.
(٢) المؤلف، كتاب «عاشوراء مددٌ وحياة»، ص: ٩٩ ـ ١٠٠.

خلافته، وليس بالإمكان تجاوز أهميتها، إذ يشكِّل عدم البيعة حالة التفاف حول الإمام عليه السلام واعتراض في داخل الأمصار، كما حصل مع أهل الكوفة في بداية الأمر، ما يؤدي إلى توسيع هذه الحالة وتهديد حكم الخليفة»[1].

نتج عن موقف الإمام الحسين عليه السلام أمران: الشهادة الكربلائية، وانتصار الهدف. لم نكن أمام نصر عسكري، بل أمام نصر للمبدأ، ثقافي وسياسي واستراتيجي، حيث أدَّت الشهادة إلى هزة ضمير في الأمة، وفضحت الحاكم الظالم، ثم تتالت الثورات، وتعثَّر الحكم الظالم يزيد، في مقابل بروز خط الإمام الحسين عليه السلام ومنهجه الإسلامي الأصيل، الذي أعاد النقاش مجدداً حول القيادة الشرعية، والتفسير الصحيح للإسلام، وشقَّ طريق الإصلاح في الأمة، وهو مصداق رسالته المكتوبة لأخيه محمد ابن الحنفيه عند خروجه من المدينة المنورة رافضاً للبيعة: «**وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب** عليه السلام»[2]. حصلت المواجهة العسكرية في كربلاء لتحقيق هذه الأهداف الثلاثة: الإصلاح في الأمة، والأمر بالمعروف وانتهي عن المنكر، والاقتداء بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولم تكن المعركة من أجل الحكم،

(١) المؤلف، كتاب «عاشوراء مددٌ وحياة»، ص: ٩٧.

(٢) المقتل للخوارزمي، ج١، ص: ١٨٨.

أو المنافسة على الزعامة، أو لأهداف خاصة. فإذا ما قارنا نتائج نهضة الإمام الحسين عليه السلام منذ سنة ٦١هـ إلى عامنا هذا سنة١٤٣١هـ، هل نجدها تراجعت أم تقدَّمت؟ هل أصبح الإسلام حياً وواضحاً، أم أن التباسات التفسير وغياب المعصوم تعصف به؟ إنَّ ما تنعم به الأمة اليوم من نقاء الخط الإسلامي الأصيل ثمرةٌ من ثمار شهادة الإمام الحسين عليه السلام.

النصر أمرٌ محبوبٌ ومرغوب، وقد شجع الإسلام المؤمنين على الدعاء بالنصر، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، وقال جلَّ وعلا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]. إلَّا أن الظروف الموضوعية قد لا تسمح بالنصر، بسبب تراخي الأمة واستسلامها، وعلينا أن نستحضر دائماً عاملين للنصر: إعداد العدة، والتوكل على تسديد الله تعالى. فإذا ما اختل عاملٌ من العاملين لم يتحقق النصر للأمة.

يبدأ النصر من داخل النفس الإنسانية، عندما يؤمن الفرد بأهليته

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

للنصر، وضرورة استعداده له، والصبر إذا ما تأخر تحققُه، وأنَّه سيتحقق حتماً في نهاية المطاف، وبتعبير آخر: على المؤمن أن يعيش الحالة المعنوية أملاً بالانتصار، وهي مصاحبة لعنوان العزَّة، فإذا ما عاش عزيزاً في نفسه، لا تهزُّه المصاعب، ولا تثنيه الخسائر، فما تعطيه العزَّة من دفعٍ معنوي، يعوِّض ما خسره مادياً في واقع الأمة.

هذه العزة لا يمكن أن يفهمها الماديون، ولذا عندما نتحدث عن الكرامة وعن المعنويات يستغربون هذا الحديث، ويعتبرون أننا لا نلامس الوقائع المادية التي اعتادوها، ففي الوقائع المادية ربحٌ مادي أو خسارة مادية، مركز اجتماعي أو فشل اجتماعي، تسلطٌ أو خسارة لهذا التسلط، أمَّا العزة فهي مكانة عند الله تعالى تنعكس في حياة الناس وواقعهم، ومن خلال ما يشعر به الإنسان من راحة وطمأنينة واستقرار، إنها تعبير عن العلاقة السليمة مع الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. لا يمكن للمؤمنين أن يرفضوا هذه العزة، ولا يمكن أن تكون إضافة مستحبة في حياتهم، إنَّها جزء لا يتجزأ من تربيتهم وأخلاقيتهم ومكانتهم، عليهم أن يؤمنوا بها، وأن يعملوا لها، وأن يقتنعوا بأنهم أعزة مع الله تعالى، فمن ارتبط بصاحب العزة لا بدَّ أن يكون عزيزاً. لماذا يتخذ البعض الكافرين أولياء ومناصرين؟ لأنهم يعتقدون أن الكافرين يرفعون من مكانتهم، ومن شأنهم، ويساندونهم ويمدونهم ويعطونهم، قال

(١) سورة المنافقون، من الآية: ٨.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[1].

أيها الناس لا تبحثوا عن العزة إلّا مع الله تعالى، لأنَّ أي علو من دون الله لا يمكن أن يكون عزة ولا مكانةً مرموقة أو سامية، أما مع الله فإنها العزة الحقيقية ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

العزة والنصر متلازمان، فالعزة مكانةٌ وسمو، والنصر عطاءٌ إلهي كمكافأة على عملٍ وجهاد، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[3]، والرابط بينهما أن العزة حالة معنوية تتربى عليها وتعيشها كمؤمن، ثم تسعى في حياتك فينصرك الله تعالى مادياً وعلى المستوى المباشر، فتعيش الحالة المعنوية في داخل نفسك، وتعيشها أيضاً بانتصارك من خلال جهادك وانتصارك على أعداء الله تعالى وأعدائك.

بناءً لما تقدَّم، يمكننا اعتبار المؤمن منتصراً في كل أحواله، ولو انهزم عسكرياً في مقارعة الأعداء، أولم يتمكَّن من توجيه الأمة بحسب أطروحة الإسلام التي يؤمن بها في الحياة السياسية أو الاجتماعية العامة. فهو منتصرٌ معنوياً في داخل نفسه بالعزة التي يعيشها وبتمسكه بمبدئه ومنهجه، وهو منتصرٌ على المستوى الفردي إذا ما استشهد من موقعه الإيماني بسبب تحقيقه لمرضاة الله تعالى

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة المنافقون، من الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١٢٦.

ودخوله جنة الخلد ولو انهزمت الأمة، وهو منتصرٌ مع أمته إذا ما نجح عسكرياً وسياسياً في سيادة الأطروحة الإلهية.

فالنصر لا ينحصر بنصر الجماعة مادياً، بل يمكن أن يكون للفرد نصره، كما تكون له هزيمته، فالنصر نصران: نصرٌ فردي، ونصرٌ جماعي. أما النصر الفردي فمرتبط بالرؤية والمنهج، ومدى تمسك المؤمن بهما إلى نهاية حياته مهما واجه من تحدِّيات وأخطار، حيث يتعامل مع التحديات بحسبها، فتارة يصبر، وأخرى يواجه ويتحمل أضرار المواجهة، وثالثة يستشهد، أي أنه يسلك خطًّا واضحاً يواكبه بأداءٍ يتناغم مع متطلبات هذا الخط، بحسب الزمان والمكان والظروف، وهذا هو الفرق الجوهري مع الإنسان المادي الذي لا يملك منهجاً مستقيماً ولا رؤية متكاملة، حيث ينصبُّ تفكيره وموقفه على ظواهر المكاسب المادية، فإذا ما حصل عليها بالتنازل المؤلم أو الاستسلام أو الذل أو تضييع حقوق الأمة... فهو لا يمانع، بل يدافع عن مساره، لأنه اختار الكسب المادي، ولم يختر المنهج الإنساني السليم.

إذاً، ينتصر الفرد ما دام محافظاً على منهجه السليم حتى ولو استشهد، في الوقت الذي تنهزم فيه الأمة عسكرياً وسياسياً وثقافياً، كما ينتصر ببقائه على قيد الحياة أو باستشهاده، في الوقت الذي تنتصر فيه الأمة بكل المعايير. فإذا ما أحسنت الأمة وتمَّمت ما عليها وطوَّرت أداءها، انتصرت، وإذا ما أساءت وقصَّرت وتخلَّفت،

انهزمت، فللأمة مسارها وشروطها في الانتصار أو الهزيمة، ما لا يؤثر على انتصار الفرد في كل أحواله، والذي له مساره في الانتصار أو الهزيمة، سواءً انتصرت الأمة أو انهزمت، وعندما يتربَّى على هذه الرؤية، يشكل انتصاره البداية الحقيقية لانتصار الأمة.

عندما لا تكون القوة متكافئة في مواجهة العدو أو الظالم، نكون أمام أحد احتمالين: التسليم بالهزيمة، أو رفض الظلم والعدوان، ولكلٍّ منهما مستلزماته وأساليب ووسائل التعبير عنه. فالتسليم بالهزيمة قبولٌ بالانقياد بأبعاده المختلفة، نذكر منها:

١ ـ **الانقياد السياسي**، الذي يستلزم تبني الطروحات السياسية للجهة المسيطرة قولاً وعملاً، ويكون أصدقاؤها هم الأصدقاء، وأعداؤها هم الأعداء، وإذا ما تطلبت مصلحتها استغلال الوطن، يتحول المستسلم إلى أداة تنفيذية أو بوق دعائي أو منظِّرٍ لذلك أو مغتاظ يترقَّب، وهناك احتمالات كثيرة بأن يفقد القدرة على اتخاذ القرار الحر في كل المجالات الشخصية والوطنية، وذلك بحسب مساحة اهتمام الجهة المسيطرة وحاجتها من الجهة المسيطر عليها.

٢ ـ **الانقياد الثقافي**، بتغيير الأسس والمفاهيم والرؤى التي تتعارض مع نظرة المستعمر والمستكبر، وقد حفل التاريخ والحاضر بالتوجهات الثقافية التي ينشرها المستعمرون في البلاد المستعمَرَة، فيتحولون إلى مرجعية ثقافية، ويربطون الأجيال الناشئة بهم، فضلاً عن تحويلهم إلى أتباع وملحقين في الثقافة وشعاراتها، ويعملون

على تثبيت نمط عيشهم وتفكيرهم، بهدف سلخ البلدان المستعمَرَة عن ماضيها، وتسهيل تقبلها لطريقة تفكير المستعمرِ ومفاهيمه الجديدة. وهذا ما ينطبق أيضاً على الحكام الظلمة، الذين يجمعون حولهم منظِّري ومثقفي البلاط، لترويج ما يساعدهم على السيطرة من ناحية، والعودة إليهم كمرجعية فكرية وثقافية من ناحية أخرى.

٣ ـ **الانقياد الاقتصادي**، الذي يحرِم الدولة وأركانها من النهوض وتوفير الحياة الكريمة للشعب، ثم يوفر المستكبرون الغطاء لحماية أتباعهم أثناء تفريطهم بثروة بلدهم وتقديمهم للتنازلات الفاضحة لمصلحة هؤلاء المستكبرين، مقابل بعض المكتسبات الشخصية الواهية، ما يضع البلد أمام التبعية الاقتصادية، ثم يحصر ثروات البلد بأيدي فئة قليلة تتحكَّم بخياراته، وتُمسك بمصالح الناس، لاستدراجها إلى المواقف التي تمكِّن المستعمِر من الإمساك بمفاصل الحياة في المجتمع.

مستويات الرفض

إنَّ الرفض للظلم والعدوان هو ممانعة تؤدي إلى التصادم بمستويات مختلفة، وذلك بحسب مستوى وتأثير الرفض، وكيفية تعامل الجهة الظالمة معه، لكنَّه خيار من يريد الحياة الحرَّة الكريمة العزيزة، التي يكون فيها الإنسان سيداً لنفسه، والجماعة سيدةً لقرارها.

يبدأ الرفض بالقلب، أي على المستوى النفسي والذاتي، فيكون

القلب مستنكراً للظلم، ويبني الرافض كل مواقفه على إيجاد الفاصل والتمايز مع الظالم، وقد يكتفي بهذا الموقف لعجزه عن التغيير، وعدم توفر الظروف الملائمة والكافية لمستوى آخر من التحرك، أو لأنَّ ردَّة فعل الخصم لا تترك مجالاً لأكثر من هذا، خاصة عندما تكون قاسية ومكلفة ولا ثمرة عملية من مواجهتها، عندها يكون الإنكار بالقلب كمسارٍ متمايزٍ ومواجهٍ لأطروحة الظالم، مؤسِّساً لأمرٍ أفضل في المستقبل، وهذا ما يجعل من الرفض بالقلب مدماكاً أوَّلَ في مسار التغيير والمواجهة.

المستوى الثاني هو الرفض باللسان، بالتعبير عن الموقف مشافهة أو كتابة أو محاورة أو موقفاً سياسياً... ليسمع الظالم الموقف، ثم يتكرَّر على مسمعه ومسمع الناس، فيتّضح الرأي المخالف له، والمستنكر لموقفه. وقد لا يتجاوز الرفضُ التعبيرَ بسبب الظروف التي لا تسمح بأكثر من ذلك، أو لا ينتفع في مرحلة من المراحل بما يتجاوزه. يؤسِّس الرفض باللسان لإظهار الموقف، والتعبئة العامة للناس، وفضح الظالمين المعتدين، ومراكمة حركة الاعتراض التي قد تؤدي إلى نتيجة، أو تهيِّء الأرضية الصالحة للمستوى الثالث.

المستوى الثالث هو الرفض باليد، أي استخدام القوة الجسدية والعسكرية، حيث لا يمكن طرد المحتل من الأرض إلَّا بالجهاد والمقاومة، ولا يرتدع الظالم الذي يؤذي الناس إلَّا بكفِّ يده

بالوقوف في وجهه. هذا المستوى هو الخيار الأقصى والأخير، وذلك عندما يفقد المستويان الأول والثاني أي القلب واللسان قدرتهما على المعالجة ووضع حدٍّ للظلم والعدوان، ومن نافل القول بأنَّ لهذا الخيار مقدماته وظروفه واستعداداته، فلا يكون الاستخدام للقوة بطريقة عشوائية أو عبثية، وإنما بحكمة ودراية لطبيعة الواقع، ومستوى الإعداد، ومدى التأثير، وبحسب التجارب التاريخية والمعاصرة، لا إمكانية لإسقاط هذا الخيار في كثير من الحالات إلَّا إذا اخترنا التسليم بالهزيمة!

حدثنا رسول الله ﷺ عن هذه المستويات الثلاثة ضمن الإطار العام لتغيير المنكر، فقال: «**من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

---

(١) صحيح مسلم، ج١، ص: ٥٠.

الفصل الرابع

الشهادة والحياة

الشهادةُ خيارٌ دفاعيٌ فَعَّال

لم تكن الشهادة أمراً طارئاً في حياة الامة، فتربيتها وسلوكها مبنيان على الايمان بها، وانما أصبحت مثار جدل عند البعض، بسبب تقاعس الامة، وغرقها في ملذاتها، واقبالها على الدنيا بزخارفها وزينتها، وعندما تعود الامة الى التفاعل مع عطاءات الشهادة، فهي تعبِّر عن عودتها الى ايمانها وأصالتها.

تبقى أي مقاومة للعدو عاجزة عن تحقيق أهدافها ما لم تصل إلى الاستعداد للشهادة، التي تُعتبر خياراً دفاعياً فعالاً ومؤثراً، وتعطي الأمل بردع العدو وتحقيق النصر، كما نتلمَّس أهميتها من خلال الأمور التالية التي تؤكد على الشهادة كخيار دفاعي:

١ ـ يعتمد العدو على القدرة العسكرية الأحدث والأكثر تطوراً للسيطرة، وتعتمد المقاومة المسلَّحة على إمكانات عسكرية متواضعة قياساً بما عند العدو، حيث لا يمكن لقدرات المقاومة التفوق على قدرات العدو، ولا تنافس قوةُ المقاومة قوةَ العدو، فإذا ما ربَّت المقاومة أفرادها على الاستعداد للشهادة، امتلكت قوةً معنوية تضيفها

إلى قوتها المادية. انَّ المستعد للشهادة إنسان مبدئي مؤمن، اختار طريقه بملء إرادته، وهو يدرك أهمية الخطوة التي يُقدم عليها، وما تحمله من رصيد في استعداداته مع إخوانه للمواجهة. المستعد للشهادة صاحبُ عزيمة وتصميم، مؤمنٌ بمساره ومصيره، جاهزٌ للمخاطر والأعباء، وهو يمتلك قوةً إضافية تُكسِبُه اياها الشهادة، قوةً مُستمدَّة من الايمان بقوة الله الى جانب المؤمنين، تُمثِّل نموذجاً من القوة الانسانية، ليس مألوفاً لدى البشر في الحالات العادية، وهو يأمل التوفيق من الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[1].

وكما يكون التفاوت متحققاً لمصلحة العدو في القوة المادية، كذلك يكون التفاوت في القوة المعنوية، ولكن لمصلحة المقاومين، وهي تزيد من رصيد قوتهم كلما ازدادت لديهم، ولا يمكن إجراء القياس الدقيق لمستوى الإضافة الذي تهيِّئه الشهادة، إذ أنها تتكامل مع الإعداد العسكري والتدريب والخطط... وتتأثر قبل كل ذلك بمستوى الإيمان بمَدَد الله تعالى للمؤمنين، وهذا ما ينعكس إيجابياً وبشكل كبير على نتائج المواجهة.

٢ ـ يُزيلُ الاستعداد للشهادة حاجز الخوف من الموت، ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا

---

(١) سورة هود، من الآية: ٨٨.

رَّحِيمًا﴾[(١)]، ما يعطي دفعاً وقوة للمجاهدين، في مقابل إسقاط فعالية السيطرة عند العدو الذي يعتمد فيها على إخافة خصمه، وهذا ما يوقع العدو في حيرة من أمره. فاستخدام القوة للإخافة بالقتل ليس مجدياً في المعركة مع المجاهدين، وهذا مؤشر إضافي لمصلحة المجاهدين في ميزان القوة، فعدم خوفهم قوة مضافة إلى قوتهم، تُنقِص من قوة عدوِّهم.

٣ ـ يعيش المؤمنون حالة من الاطمئنان بأنَّهم الأقوى مع قلة العدد والعدة، وأنَّ الواحد منهم يساوي عشرة من الأعداء، وذلك لإخبار الله تعالى لهم بذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[(٢)]، وأن الأعداء يتوهمون قدرة المؤمنين فيفاجأون ويخسرون، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[(٣)]، فتزداد قوة المستعدين للشهادة من جهتين: قناعتهم وواقعهم بأن قوتهم العددية مضاعفة مرات ومرات عن واقعها المادي، وإحباط أعدائهم بالمفاجأة بقدرة المؤمنين ونوعيتها ما يُضعِف قدرتهم مرات ومرات عن واقعها المادي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

٤ ـ دافعُ الشهادة المرتبطة باستعادة الحق أقوى من دافع العدوان المرتبط بالظلم والغصب، فإذا ما أضيفت ثمار الشهادة في سبيل الله، والتي تفتح أفق التعويض عند الله تعالى في يوم القيامة، بحيث يكون الموت محطةً إلى الآخرة التي فيها وَعْدُ الجنة، فإنَّها تنافس خوف المعتدي من الموت، الذي هو نهاية الحياة بالنسبة اليه، فلا أمل له الَّا بالهروب منه. وقد أجرى الله تعالى مثل هذه المقارنة، عندما تحدث عن الألم الناتج عن القتال عند الفريقين، مع فارق جوهري يتمثل بالأمل والرجاء عند المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

٥ ـ يفتح الإقدام على الشهادة فرصة لتحقيق النصر المادي والفوز على الأعداء، في مقابل انعدام الفرص عبر الوسائل الأخرى، فعلى مستوى الفرد: قد يستشهد وقد ينتصر، وعلى مستوى الجماعة: قد يستشهد أفراد وتنتصر الأمة، ومن دون الإستعداد للشهادة والمواجهة التي يسقط فيها الشهداء يزداد الواقع سوءاً، ويتمكَّن العدو من فرض أهدافه كاملة.

٦ ـ تحققُ شهادة المجاهدين ردعاً للعدو، فإذا ما كان الانتصار متعذِّراً، وتفكيكُ قدرة العدو عسيراً، فإنَّ ردعه عن المزيد من السيطرة والعدوان والاحتلال إنجازٌ مهم، إلى حين تغيُّر الظروف

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

وتطور قدرة المقاومة. ولو لم يكن من هدفٍ مرحلي للمقاومة إلا إعاقة حركة العدو وتجميد مشروعه، لكانت الشهادة في هذا السبيل عملاً جباراً يؤسّس لأفقٍ مفتوح في المستقبل أمام الأجيال القادمة، لتغيير المعادلة، وإعادة الحق إلى أهله.

الهدف سبيل الله تعالى

الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد هو أصلُ كل شيء، فهو المنطلق لاختيار منهج سبيل الله تعالى، وهو المسار الذي يهدي الإنسان خلال حياته في هذه الدنيا، وهو الهدف النهائي المؤدي إلى الرضا عن سلوك الإنسان، والذي ينتج عنه ثواب جنة الخلد.

المنطلق والبداية من الإيمان بالله تعالى، الذي يستلزم الإيمان بنبوة محمدﷺ ورسالته الإسلام، فيؤدي هذا الاعتقاد إلى الالتزام بالمنهج المتمثل بالشريعة السمحاء، لتكون أعمال الإنسان في كل المجالات مقيدةً بضوابط الحلال، وممتنعة عن ارتكاب الحرام، بحيث تكون تعبيراً عن صدق الإيمان. إنَّ الأعمال الصالحة ليست أهدافاً بذاتها، وإنَّما هي طرقٌ تؤدي إلى الهدف المركزي، بانسجام المخلوق في حركته الدنيوية مع ما يريده خالق الكون والحياة والإنسان. فالعبادةُ طريقٌ إلى الله تعالى، والأخلاقُ سلوكٌ يوصل إلى الله تعالى، والجهادُ مدافعةٌ وقتالٌ في سبيل الله تعالى، بحيث ينتجُ عن العبادة نهيٌ عن الفحشاء والمنكر وزيادةٌ في درجات التقوى، وعن الأخلاق حسنُ المعشر وأنسُ الأحبة ونموذج الإنسان في

إنسانيته، وعن الجهاد إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة، فإذا ما تحقَّقت هذه النتائج، يكون المؤمن قد أنجز هدفه.

وصف الله تعالى المؤمنين بالصادقين لأنَّهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[1]، فالبداية من الإيمان، ثم الاستعداد، ثم الجهاد، ثم النصر أو الشهادة. بهذا تكون الشهادة نتيجة كما النصر نتيجة، وإنما يكون الفوز من العنوان المركزي وهو الإيمان، ثم يتم اختيار طريق الجهاد على خطى الإيمان بالله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر الله عزَّ وجلَّ على كل حال، فإنَّه ليس عملٌ أحب إلى الله تعالى، ولا أنجَى لعبدٍ من كلِّ سيئة في الدنيا والآخرة من ذكر الله. قيل: ولا القتال في سبيل الله. قال: لولا ذكرُ الله لم يؤمر بالقتال في سبيل الله**»[2].

يتمنى المؤمن أن تنتهي حياته بالشهادة، التي تكون تعبيراً عن أقصى العطاء لديه، لكنَّه لا يمكنه التحكُّم بحياته ليصل إليها، فقد يجاهد ولا يستشهد، وقد يكون في ظروف لا تتيسر فيها فرص الشهادة، وقد يكون تكليفه الصبر على الأذى وعدم التصدي ما يحجب فرصتها. الشهادةُ مرغوبةٌ كنتيجة، لمكانتها عند الله تعالى،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، ج٢، ص: ٢٤٣.

لكنَّ المؤمن لا يبحث عنها كيفما كان، فالأساس هو الإيمان، والطريق إلى سبيل الله تعالى من خلال الجهاد، وهذا ما يوصل إلى الرحمة الإلهية المبتغاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

إنَّ التجارة مع الله تعالى إيمانٌ وجهاد، يؤديان إلى المغفرة والجنة في الآخرة، والنصر والفتح في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]. هذا وعد الله تعالى للمؤمنين بالفوز والنصر والنجاة والنجاح.

وعندما يأمر الله المؤمنين بالقتال، يصفهم بالذين لبُّوا النداء في سبيل الله تعالى، مؤثرين الحياة الآخرة على الدنيا، مستعدين لنتيجة القتال، فيحصلون على الأجر العظيم سواء قُتلوا واستشهدوا، أو غلبوا وانتصروا، إذاً العبرة بسلوك درب الجهاد مهما كانت نتائجه على حياتهم، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٤.

لو استطاع المؤمنون تحقيق أهداف الرسالة السمحاء من دون قتال فهو أرحب لهم، ولو أمكن الأمن من الأعداء على الإيمان والأعراض والأرض والكرامة لما كان القتال مطلوباً. تحدث أمير المؤمنين علي عليه السلام عن رؤيته لمعركة صفين، وهو يريد هداية الفئة الضالة لا قتالها، فالقتال تكليف الواجب والضرورة وليس هدفاً بذاته، قال عليه السلام: «**فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إليَّ من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوءُ بآثامها**»[1]. وإنما دعا لمواجهة جيش معاوية حين غزا الأنبار من أجل الدفاع عن بيضة الإسلام، وطلب من المسلمين أن يبادروا لمواجهته قبل أن يصل إليهم كجزء من خطته في تحقيق النصر وعدم الوقوع في شرك الهزيمة، قال عليه السلام: «**ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلتُ لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قومٌ في عُقر دارهم إلا ذَلُّوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شُنَّت الغاراتُ عليكم، ومُلكَت عليكم الأوطان**»[2]. اغزوهم قبل أن يغزوكم كي لا يذلونكم فتخسروا.

الشهادة هي الأرقى، وغاية المنى أن يختم الإنسان حياته بموت الشهادة، ولكن بشرطها وشروطها وأسبابها ومسبباتها، وعلينا الدعاء دائماً بأن يرزقنا الله تعالى الشهادة عند حلول الأجَلْ، فالاستعداد

---

(١) نهج البلاغة، ص: ١١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص: ٧٦.

للشهادة يريح النفس، ويُذهب القلق، ويعزِّز الأمل بالعطايا الإلهية الكبرى، ما يؤدي إلى الاستقرار النفسي والسعادة الروحية في هذه الحياة. على أن يبقى حاضراً في دعاء المؤمن طلب النصر من الله تعالى، لصالح الأمة، ودين الله تعالى، وحماية جماعة المؤمنين، لإعلاء كلمة الله تعالى على الأرض. إن النبي ﷺ لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة، وقال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض. فما زال يهتف ربَّه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل الله تعالى:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]».

عندما انطلق الإمام الحسين عليه السلام من المدينة المنورة معلناً بداية سَيرِهِ لنصرة الموقف الحق، أعلن هدفه بوضوح لا لُبس فيه، فهو يريد الإصلاح في الأمة، لتعود إلى سيرة رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولذا لا بدَّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كتب في وصيته إلى أخيه محمد بن الحنفية: «**وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة**

---

(١) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٤، ص: ٤٣٦.

جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام»[1]. مسيرة الإمام الحسين عليه السلام مسيرةُ جهادٍ بالأنفس والأموال لخيرة خلق الله تعالى، أدَّت إلى الشهادة في كربلاء. فالهدف سبيل الله تعالى، وقد شحذ له الإمام الحسين عليه السلام وخيرة أهل بيته وأصحابه هممهم للوصول إليه مهما كلَّف ذلك، فكانت الشهادة ثمناً مرغوباً عند هذه الثلة الطاهرة في سبيل الله تعالى. لم يذهب الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء لأنه يريد أن يُقتل فيها، وإنما أوصله السعي للإصلاح في الأمة وجهاده في سبيل الله تعالى إلى الشهادة في كربلاء، وهي مشيئة الله تعالى في أن يمنح بعض عباده الشهادة ولا يمنحها لآخرين عند الموت، روى الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: **«يا حسين، اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً»**[2]، ولا ردَّ لمشيئة الله تعالى، وهي محبوبة ومرغوبة كيفما كانت، فكيف إذا كانت درجة الشهادة.

الأَجَلْ

تمنح التربية على الجهاد بالمال والنفس قدرة على بذل أقصى التضحيات، ما يعطي المؤمن قوة معنوية دافعة تساعده على تحدي الصعوبات، وتُكسبه جرأة لا يخشى معها التهديد بالموت. لكنَّ الطريق الموصل إلى الشهادة لا يغيِّر في معادلة الأجَلْ، فالشهادة لا تقرِّب أجَلاً، كما أنَّ الهرب من ساحة الجهاد أو الفرار من الزَّحف لا

---

(١) مقتل الخوارزمي، ج١، ص: ١٨٨.
(٢) اللهوف، ابن طاووس، ج١، ص: ٤٠.

يُبعِّدُ أجَلاً، لأنَّ وقت الموت لكل مخلوق بيد الله تعالى، الذي يحيي ويميت، وقد حدَّد لكل حيٍّ أجَلاً محدَّداً لا يعلمه إلَّا الله جلَّ وعلا، وهو من الغيب، كتوقيت يوم القيامة، علمه عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾(١)، فالموت بيد الله تعالى في كتابٍ كتبَ فيه آجال العباد، ولن تتأخر نفسٌ عن موتها إذا ما حان أجلُها، قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢). فإذا ما استيقظ الإنسان من نومه، ولم تفارقه روحه بالموت، فلأنَّ أجَلَه لم يحن بعد، وهو أجلٌ مسمىً في وقت محدد، لذا أرسل الله الروح من بعد النوم، فلم يمسكها بالموت، إلى أن يحين أجلها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

لا يستطيع الإنسان معرفة وقت موته، ونحن نرى الذين يموتون صغاراً أو كباراً، فجأة أو بطريقة غير محسوبة، فإذا كنَّا نجهل السبب الذي سيؤدي إلى موت أحدنا، مع وجود احتمالات كثيرة، فما الدليل على اعتبار الشهادة سبباً حصرياً للموت؟! الموت مقدَّرٌ من الله

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٤٥.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ١١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

تعالى، والشهادة سببٌ من الأسباب الظاهرية الكثيرة التي تؤدي إلى الموت، وفق القانون الإلهي في جعل سببٍ لكل ميتة، وبما أنَّ الموت خارجٌ عن سلطة البشر، وله وقت معلوم بالنسبة لكل إنسان، فلا فائدة من التمرد على هذه الحقيقة، ولا مهرب من الحوادث الواقعة، وسرعان ما يتهيأ سبب الموت من دون أن يلتفت إليه الناس. فمن أراد حمايةً فعّالة لنفسه فالأجَل هو الحماية، ومن أراد اطمئناناً في حياته فليلتفت إلى واجبه ليؤديه من دون تضييع الجهد والوقت في احتساب أوان الموت. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**كفى بالأجَل حرزا. إنَّه ليس أحدٌ من الناس إلَّا ومعه حفظةٌ من الله يحفظونه، أنْ لا يتردَّى في بئر، ولا يقع عليه حائط، ولا يُصيبه سبع، فإذا جاء أجَلُه خلُّوا بينه وبين أجَلِه**»[1]، وقال: «**كفى بالأجل حارساً**»[2].

وبما أنَّ الموت حقٌّ، وكل نفسٍ ذائقة الموت، ولها أجلٌ معلوم، فليكن الاختيار في الحياة لمنهج سبيل الله، فإذا ما أدَّى إلى موت الشهادة فهو أشرف الموت. عن الأمير عليه السلام وهو يحرِّض المسلمين على القتال: «**أيها الناس، إن الموت لا يفوته المقيم ولا يُعجزه الهارب، ليس عن الموت محيص، ومن لم يمت يُقتل، وإنَّ أفضل الموت القتل. والذي نفسي بيده، لألفُ ضربةٍ بالسيف، أهونُ عليَّ من ميتةٍ على فراش**»[3].

---

(١) الحرَّاني، تحف العقول، ص: ٢٢٤.
(٢) نهج البلاغة، ص: ٨١١.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص: ٥٤.

ثقافة الحياة

الحياة منحة الخالق للمخلوق، وقد زرع الله تعالى حبَّ الحياة في فطرة الإنسان، ولا يشذُّ عنها إلَّا القليل من البشر، بسوء التربية والتوجيه، فيرفضونها يائسين منها، فينتحرون، أما الوضع الطبيعي للبشر فهو تعلّقهم بالحياة وارتباطهم بها. لذا من الخطأ القول بأن ثقافة الحياة من مختصّات بعض الناس في مقابل ثقافة الموت، لأن الجميع يريد الحياة، لكنّهم يختلفون في كيفيتها وتوصيفها وما يريدونه منها، وإنما ينطلق هذا الاختلاف من اختلاف مناهجهم في النظرة إلى الكون والإنسان والحياة، والذي ينعكس على ثقافتهم ورؤيتهم وسلوكهم في حياتهم.

يسود البشرية منذ بدايتها منهجان: منهج إلهي ومنهج مادي، وما نراه من اختلافات بين المفكرين أو الجهات المختلفة إنما هي اختلافات في تفصيل كل منهج من هذين المنهجين، أمَّا الرسالات السماوية وأساسها وأكملها وأتمّها الإسلام، وما نشأ عنها من فرق وجماعات واتجاهات فتنضوي تحت المنهج الإلهي، وأمّا الأفكار البشرية والطروحات المتفاوتة عبر العصور وأبرزها الرأسمالية والشيوعية فتنضوي تحت المنهج المادي.

كيف ينظر كل من المؤمنين بالمنهج الإلهي والمنهج المادي إلى الحياة؟

من الأفضل أن نتناول في حديثنا نموذجين رئيسيين لنطبق

عليهما نظرتهما إلى الحياة، لتسهل علينا المقارنة الواقعية والعملية، وهما: الإسلام الذي يمثل المنهج الإلهي، والرأسمالية التي تمثل اليوم المنهج المادي.

ينظر الإسلام إلى الدنيا كممر إلى الآخرة، يعيش فيها الإنسان حياةً قصيرة محدودة الأجل، ويعمل فيها حراً في الاختيار، فإذا كان مؤمناً بالله تعالى وعمل الصالحات أدخله الله تعالى الجنة يوم الحساب، وإذا كان كافراً أو أفسد في الأرض وعمل المنكرات أدخله الله تعالى النار، وفي الحالتين يعيش الحياة الأبدية الخالدة في الجنة أو النار، والتي تتجاوز الحياة الدنيوية المؤقتة بما لا يُقاس.

يدعو الإسلام إلى استثمار الحياة الدنيا، والتمسك بها في إطار الصلاح، وأن يسعى الإنسان فيها لكسب المزيد من العمل الصالح، فتزداد مكافأته في يوم القيامة، من دون أن يفوِّت نصيبه من الدنيا، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١]، وأن يعمل لها كأنه يعيش فيها طويلاً، ففي الحديث الشريف المروي عن الإمام الحسن عليه السلام: «**إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**»[٢]، وأن لا يحرم نفسه من حلالها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج١٣، ص: ٥٨.

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١] وان يدعو فيها بطول عمره في الخير والصلاح، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه ليوم الثلاثاء: «**واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والوفاة راحة لي من كل شر**»[٢]، ومن دعائه في مكارم الأخلاق: «**وعمِّرني ما كان عمري بِذلةً في طاعتك**»[٣].

يحدِّد الإسلام شريعته لسعادة الإنسان في دنياه وثوابه في آخرته، فينظم شؤونه في إطار الحلال والحرام، ليضبط إيقاع حياته على خط الصلاح، الذي يحتاج إلى تربية وصبر وتضحية، للمحافظة على الاستقامة أمام المغريات والأنانيات والمصالح المادية الفانية. ينتج عن هذه الحدود:

أ ـ **الحياة الصالحة**، لأن إتباع الحلال والامتناع عن الحرام يؤديان إلى النجاح في الالتزام بما أمر به الله تعالى، ويحققان الصلاح والاستقامة للإنسان بحسب المنهج الإلهي. يحصل الإنسان المؤمن نتيجةً لهذا الصلاح على خيرات الدنيا وحلالها صافيةً طاهرةً، فينعم بها متجنباً مفاسد ومضار الحرام، وهو بذلك لا يكون محروماً من الدنيا، بل موفقاً فيما اختار في طاعة الله تعالى، محظياً

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٧، ص: ١٨٧.
(٣) الصحيفة السجادية، ص: ١١١.

بأفضل ما في الدنيا، ومؤسِّساً للفوز بالآخرة، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، في عهده إلى واليه محمد بن أبي بكر حين قلَّده مصر: «**واعلموا عباد الله، أنَّ المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجِلِ الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم. سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكنتْ، وأكلوها بأفضل ما أُكلتْ، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزَّاد المبلِّغ والمتجر الرابح. أصابوا لذَّة زُهد الدنيا في دنياهم، وتيقَّنوا أنَّهم جيرانُ الله غداً في آخرتهم**»[1].

ب ـ **الحياة السعيدة**، لأنَّ كل الخير في أوامر الله تعالى ونواهيه، فإذا ما تفاعل الإنسان معها، وتقبَّل نتائجها بحسب المقدَّر له في هذه الدنيا، فسعى بقدر استطاعته، وتوكَّل على الله تعالى، راضياً بما قسمه له من رزق وعطايا، عاش سعيداً ومطمئناً.

ج ـ **الحياة العزيزة**، فالله لا يقبل الذل للإنسان، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وعليه أن يعمل ليكون عزيزاً، مرفوع الرأس، لا يحرفه بشر عن مساره الإيماني، ولا يستعبده أحدٌ على هذه الأرض، فإذا ما تطلبت العزة مواجهة وجهاداً وتضحيةً وشهادة، جاهد للمحافظة عليها ولو أدت إلى الشهادة، إذ لا معنى

---

(١) نهج البلاغة، ص: ٦٠٢.
(٢) سورة المنافقون، من الآية: ٨.

للحياة الذليلة الخاضعة للظالم، ولا معنى لأن يكون الإنسان أداة بيد المحتلين والمستكبرين، ففي حديث أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**»[١]، وقال الإمام الحسين عليه السلام: «**موتٌ في عز خيرٌ من حياة في ذل**»[٢].

د ـ **الحياة الجهادية**، التي يتربى المؤمن من خلالها على الاستعداد للشهادة في سبيل الله تعالى من أجل إعلاء كلمة الحق، ونصرة المظلوم، واستعادة الأرض من المحتل، ورفض المستكبر، وحماية المال والعرض والأهل والوطن... حيث يكون مقيّداً بالأمر الشرعي من القيادة الحكيمة المسؤولة في إطار الجماعة، ويضحي حيث يكون للتضحية ثمارها وفوائدها في التغيير والإصلاح، ويُهيِّء المقدمات اللازمة من القوة ومستلزماتها ليعمل على هدى وبصيرة من أمره، لكنّه لا يخشى الموت طالما أنه على الحق، مقتدياً بقول علي الأكبر ابن الإمام الحسين عليه السلام عندما قال: «**ألسنا على الحق؟.. إذاً لا نبالي، نموت محقِّين**»[٣].

حاول البعض أن يزهِدَنا بالشهيد والشهادة، وأن يعطي صورة ثقافية قاتمة لمسار الجهاد والشهادة، فنَعَتَ الشهادة بثقافة الموت، والاستسلام بثقافة الحياة، واعتبر أن عطاءات الدم لا يمكن أن تثمرَ أو أن تغيِّر المعادلة، فجاء الشهداء ليثبتوا بالجهاد وعطاءات الدم

---

(١) نهج البلاغة، من الخطبة ٥١، ص: ١١٤.
(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص: ٢٢٤.
(٣) ابو مخنف، المقتل، ص: ٩٢.

بأنهم الحياة، وأنَّهم أعطونا الحياة، لأننا قبل الشهداء كنا متخاذلين مستسلمين ومقهورين، وبعد الشهداء رفعنا رؤوسنا عالياً أمام العالم، لا يقهرنا شرقٌ ولا غربٌ، بل نثبت في الأرض بكل قوة وعزة، ببركة دماء الشهداء، وحياة الشهداء وعزتهم.

ليست المعادلة أن يكون الناس أجساداً تتحرك من دون روح، ولا أن نعيش عبيداً عند المستكبرين، وليست الحياة أن نكون تحت الوصاية الأجنبية في بلدنا، ولا أن نأكل ونشرب ثم نخضع لإملاءات إسرائيل، إنما الحياة أن نقف بوجه هؤلاء جميعاً لنقول لهم : الأرض لنا، والقدس لنا، والحياة لنا، والسيادة لنا، وسنطرد المحتلين ولو على دمائنا، عندها يزهر الدم أطفالاً وقوة تقهرهم وتصنع المستقبل، هكذا نفهم الشهداء والشهادة.

نستنتج بأن ثقافة الإسلام هي ثقافة الحياة الصالحة، والحياة السعيدة، والحياة العزيزة، والحياة الجهادية، وهي ثقافة الحياة الإنسانية ببعديها الروحي والجسدي، الدنيوي والأخروي، وهي ثقافة الشهادة من أجل حياة أفضل في هذه الدنيا قبل الآخرة. فالشهادة بهذه المعاني حياةٌ للأمة في مواجهة الاخطار المحدقة بها، وهي ليست موتاً ولا فناءً، بل استمرارية بنصرة الحق من أجل سعادة الانسان في الدنيا.

تنظر الرأسمالية إلى الحياة الدنيا من المنظار المادي، وبأنَّ الدنيا تمثل كل حياة الإنسان، ومن حقِّه أن يعيشها كما يرغب، فلا

توجد ممنوعات أو محرمات لمطالب الجسد، فحرية الفرد تتوقف عند حدود حرية الآخرين، حيث تُرسم الحدود مع الآخرين في إطار القوانين التي تنظم الحقوق والواجبات للناس في علاقاتهم مع بعضهم، ولا يوجد حساب أو رادع للسلوك الشخصي سوى الضمير الذي تتشكل ضوابطه بحسب الثقافة والتربية، وفي حين تبقى النظرة للإيمان بالله تعالى أو اليوم الآخر للحساب مسألة شخصية، حيث يؤمن به البعض ولا يؤمن به البعض الآخر، تكون منظومة الإيمان مؤثرة بقدر ما يتبناه الإنسان منها في حياته الفردية.

يدعو المنهج المادي إلى استثمار الحياة الدنيا، لأنها الفرصة الوحيدة المتاحة أمام الإنسان، ففيها التنافس والغنى والسلطة وملذات الجسد، وتتأثر خيارات الإنسان بما يبقيه على قيد الحياة ويحقق له مصالحه الخاصة. فثقافة الحياة المادية تدعو للمحافظة عليها في هذه الدنيا مهما كلَّفت من معنويات وأثمان، ولا تقف التنازلات عقبة إذا كان الثمن هو الحياة.

الحياة الصالحة بنظر الماديين هي التي اتفق الناس على صلاحها، وما يكون صالحاً لهذا العصر قد يصبح فاسداً لما يليه أو بالعكس، فالصلاح نسبي بحسب الظروف وخيارات الناس فيها، فالصالح ما اعتبروه صالحاً في زمانهم، والفاسد ما اعتبروه فاسداً فيه، ولا توجد قواعد ثابتة للصلاح والفساد. فلا غرابة عندهم أن تصبح العلاقات الجنسية غير الشرعية عادية وطبيعية، وأن تُسن القوانين لحماية الشذوذ والإباحية!

أما السعادة عندهم فهي مرتبطة بما يحققه الإنسان من رغبات وملذات في هذه الحياة الدنيا، بحيث لا يحرم نفسه من شيء.

وأما الحياة العزيزة فمطلوبة إذا لم تؤد إلى الموت أو التضحية الكبرى، وإلَّا فالمحافظة على الحياة هو المطلوب، ولو أدى ذلك إلى التسوية أو الاستسلام، فإنها ـ في نظرهم ـ مرحلة يمكن تجاوزها لاحقاً إذا ما تغيّرت الظروف.

بناءً لما تقدّم، فإنَّ الشهادة ليست طريقاً مرغوباً لدى الاتجاه المادي، وإذا حصل التفاعل معها في محطات معيّنة فكجزء من خيارات الإنسان الشخصية المرتبطة بالثقافة المؤثرة لاتِّخاذ مثل هذه القرارات، لكنّ الإطار العام للمجتمع هو تجنّب التضحية بالجسد إلى الحد الأقصى الممكن، والاقتصار على موقع الضرورة التي لا يمكن تجنُّبها.

تؤثر النظرة المادية للحياة على نمط أداء الإنسان في كل حياته، وإذا كنا نرى التفاوت بين الماديين في أدائهم وسلوكهم، فهذا عائد إلى تفسيرهم وخياراتهم، تماماً كما هو الاختلاف في مساحة النظرة إلى التشريع الإلهي، وإن اختلفت الموضوعات أو الحدود والضوابط.

تقدِّم النظرة المادية المصلحة الخاصة واللذة الجسدية على حساب الإنسانية، ولو أنكرت ذلك، وتفتح الطريق واسعة أمام الفساد (الإباحية، الشذوذ الجنسي، الزنا، والمجون، والمحرمات

المختلفة)، وتعتبر الاستسلام للأقوى حنكةً وحكمة للمحافظة على الحياة، وهي تتمحور حول الأنا والذات الشخصية.

نستنتج بأن الثقافة المادية تؤكد على التمسك بالحياة الدنيوية ولو على حساب الصلاح بالمنظور الديني، ولا تُدخِل المعنويات كعامل أساسي لديهم، وإنما كعامل تكميلي مناسب في بعض الحالات، فهي ثقافة المحافظة على الحياة في هذه الدنيا مهما كان الثمن، وبالتالي فإنّ الشهادة أو التضحية تكون استثناءً ضرورياً عندما لا يمكن تجاوزه.

في الخلاصة: كلا الاتجاهين الإلهي والمادي يتمسك بالحياة، ولكلٍ منهما ثقافة للحياة، لكنهما يختلفان في تعريفها وفيما تستحقه من تضحيات. فالحياة عند الاتجاه الإلهي مقدَّرة بزمانها بالأَجَلْ من عند الله تعالى، وعلى الإنسان أن يحياها بصفاء وعزة وصلاح، ويجب أن يكون أداؤه مراعياً لاستقامتها مهما كلف ذلك من تضحيات. وأمَّا الحياة الدنيا عند الاتجاه المادي فهي نهاية المطاف، وعلى الإنسان أن يحافظ عليها، وأن يدفع الموت عنه مهما كلفه ذلك من تضحيات، ليعيش فيها بتحقيق رغباته وملذاته، من دون قيود، وبصرف النظر عن عنوان الاستقامة والصلاح.

الاتجاه الدفاعي للجهاد

أَولى الإسلامُ الجهادَ أهمية كبرى، وجعله مقدَّماً على كثير من الأمور، فلا شيء أولى منه ولو كان خدمة الكعبة الشريفة، قال

تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[١]. وحثَّ عليه ببذل الأموال والأنفس، لما له من تأثير في حماية الإسلام والمسلمين وأراضيهم وأعراضهم وأرزاقهم.

ومن خلال تَتَبُّع الآيات والروايات التي حثت على الجهاد، نجدها في سياقها العام دعوةً إلى الجهاد الدفاعي لا الهجومي الابتدائي، أي أنَّ الجهاد تشريعٌ يلحظ الموقف القوي المصحوب بالتضحية، لحماية الإيمان والمؤمنين من اعتداءات وظلمِ وطغيان الأعداء، الذين يستخدمون القوة الجسدية والعسكرية لفرض سلطتهم ومشاريعهم، ويسلبون المسلمين خيراتهم وحقوقهم وأمنهم ومستقبل أجيالهم. فالجهاد العسكري ذو طابع دفاعي بشكل عام، وليس في مقابل الاختلاف الفكري أو السياسي أو الثقافي.

تقوم الدعوة الإسلامية على السلام والرحمة والعدل والإنسانية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٢]،

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ١٩ ـ ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

لكنَّ المؤمنين غير معزولين عن المنحرفين من ناحية، والمخالفين المعادين لهم من ناحية أخرى، والذين يبادرون إلى الاعتداء والظلم، عندها يجب على المؤمنين أن يدفعوا عنهم العدوان، وأن لا يستسلموا للأمر الواقع، وإلَّا خسروا كل شيء.

فالدفاع واجبٌ بشرطه وشروطه، وهو دفاعٌ فردي في إطار الدفاع عن النفس أو المال أو الولد أو البيت... ودفاعُ الجماعة في إطار الدفاع عن الأرض وصد العدوان ومواجهة الغزاة...

أمَّا الدفاع الفردي فهو حقٌ بل واجب، تُستخدم فيه كل الوسائل، التي يتم التدرج فيها من الأدنى إلى الأعلى، بما يؤدي إلى دفع المعتدي أو منعه من تحقيق هدفه، ولكن لو لم يتم دفعُهُ إلَّا بالقتل، فهو أمرٌ مشروع عندما تنحصر به الحماية ودفع الاعتداء. ففي تحرير الوسيلة للإمام الخميني(قده)، تحدث عن الدفاع الفردي في مسألتين بوضوح لا لُبس فيه، فقال: « مسألة ٢: لو هجم عليه لص أو غيره، في داره أو غيرها، ليقتله ظلما، يجب عليه الدفاع بأي وسيلة ممكنة، ولو انجرَّ إلى قتل المهاجم، ولا يجوز له الاستسلام والانظلام. مسألة ٣: لو هجم على من يتعلق به، من ابن أو بنت أو أب أو أخ أو سائر من يتعلق به، حتى خادمه وخادمته، ليقتله ظلما، جاز بل وجب الدفاع عنه، ولو انجرَّ إلى قتل المهاجم»[١].

لا يحتاج الدفاع الفردي إلى إذن الإمام أو الفقيه، فهو حالة

---

(١) الإمام الخميني(قده)، تحرير الوسيلة، ج١، ص: ٤٨٧.

مباشرة، تتعرض فيها النفس للخطر، ولا مجال للانتظار أو السؤال، فقد يُقتل الشخص إذا لم يبادر للدفاع، أو يتحقق هدف المعتدي، لذا رسم الفقهاء حكماً عاماً أو قاعدة عامة للدفاع، وذكروا الشروط المشروعة له، وتركوا تشخيص الموضوع على عهدة المكلف، فهو الذي يقدِّر لحظة وقوع الحادثة، إذا ما كان الأمر من مصاديق الدفاع الفردي المشروع الذي يمكن أن يؤدي إلى قتل المهاجم، أو أنَّ الحالة لا تنطبق عليه. فالقاعدة مرسومة، والتطبيق على المكلف، لا يحتاج إلى إذن الولي بذلك. قال الإمام الخميني(قده): «لو كان المنكر مما لا يرضى المولى بوجوده مطلقا، كقتل النفس المحترمة، جاز بل وجب الدفع، ولو انجرَّ إلى جرح الفاعل وقتله، فوجب الدفاع عن النفس المحترمة بجرح الفاعل أو قتله لولم يمكن بغير ذلك، من غير احتياج إلى إذن الإمام عليه السلام أو الفقيه، مع حصول الشرائط، فلو هجم شخص على آخر ليقتله، وجب دفعه ولو بقتله مع الأمن من الفساد، وليس على القاتل حينئذ شيء»[1].

وأمَّا دفاع الجماعة فهو واجب أيضاً، فلو غزا عدوٌ بلاد المسلمين، وجب عليهم مواجهته والدفاع عن أرضهم، والواضح من توجيه الآية التالية تركيزها على قتال الأعداء لأنهم يقاتلونكم، ونهيها عن الاعتداء ابتداءً، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[2]. وقد ذكر الإمام

(١) الإمام الخميني(قده)، تحرير الوسيلة، ج١، ص: ٤٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

الخميني(قده) هذا الواجب في فصل الدفاع، فقال: «لو غشي بلاد المسلمين أو ثغورها عدو يُخشى منه على بيضة الإسلام ومجتمعهم، يجب عليهم الدفاع عنها بأية وسيلة ممكنة، من بذل الأموال والنفوس»[١]. كما أكدت آية أخرى على أنَّ الإذن بالقتال والدفاع قد أُعطي للمؤمنين، بعد أن ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢].

وقد أثبتت التجربة عبر التاريخ، أنَّ الجماعة التي تستسلم للأمر الواقع، وتتحكَّم فيها جماعة متسلطة ظالمة، لا تلبث أن يندثر وجودها وثقافتها ومشروعها، وأنَّ الجماعة التي تجاهد وتقاوم وتصمد تبقى، وتتقدَّم مع الزمن، وتحافظ على حيثيتها ووجودها وقناعاتها. فالدفاع من موقع الجهاد هو الحل الوحيد المتاح، للمحافظة على الإيمان والمؤمنين في مواجهة الأعداء، الذين يريدون إنهاء وجود كل ما عداهم.

ناقش الفقهاء صلاحية الفقيه في إعلان الجهاد في غياب

(١) الإمام الخميني(قده)، تحرير الوسيلة، ج١، ص: ٤٨٥.
(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ و ٤٠.

المعصوم، هل يشمل الجهاد الابتدائي، وذلك بالمبادرة ـ بصرف النظر عن المبررات ـ إلى غزو بلد آخر، أو أنَّها تقتصر على الجهاد الدفاعي، بمنع الأعداء من احتلال أرضنا أو طرده منها أو مواجهة الغزو الخارجي لبلداننا؟ قال بعضهم بصلاحية الفقيه لإعلان الجهاد بشكل عام، أكان ابتدائياً أو دفاعياً، وقال آخرون بحصر صلاحيته بالجهاد الدفاعي، معتبرين أنَّ صلاحية الجهاد الابتدائي للمعصوم حصراً. وكان رأي الإمام الخميني(قده) انحصاره بالجهاد الدفاعي، حيث قال: «في عصر غيبة ولي الأمر وسلطان العصر (عج)، كان نوابه العامة ـ وهم الفقهاء الجامعون لشرائط الفتوى والقضاء ـ قائمين مقامه، في إجراء السياسات وسائر ما للإمام عليه السلام، إلا البدأة بالجهاد»[١].

إذنُ الفقيه بالقتال

يختلف دفاع الجماعة عن الدفاع الفردي، فلا تكفي فيه القاعدة العامة أو الحكم العام في مشروعية الدفاع، بل يحتاج إلى تشخيص الفقيه للموضوع وإذنه، فهو الذي يقرِّر المورد الذي يجب فيه القتال أو الصبر، وهو الذي يحدِّد إذا ما كانت الشروط الموضوعية مكتملة للتضحية بالأنفس والشهادة في سبيل الله تعالى، وليس مجازاً لأي فرد من الأمة أن يبادر بنفسه للقتال والتضحية تحت عنوان الدفاع عن الجماعة، فهو بحاجة إلى إذنٍ خاص فيما لو ارتأى الفقيه أن تكون

(١) الإمام الخميني(قده)، تحرير الوسيلة، ج١، ص: ٤٨٢.

المواجهة محدودة ومقتصرة على أفراد، كما يحتاج إلى هذا الإذن لو كان الأمر مرتبطاً بإعلان الحرب على الأعداء.

وبما أن الدفاع عن الإسلام والمسلمين يشمل قضايا عدة، فقد يلتبس الأمر على بعضهم، فيعتبر نفسه معنياً بالدفاع عن الإسلام أو قضاياه، من دون أن تكون هناك حرب شاملة أو عدوان واسع،، فيُقدِم على قتل بعض الأفراد بعنوان المصلحة في الدفاع عن كرامة الأمة وقادتها وحماية مقدساتها، وهذا الأمر يحتاج إلى إذن أيضاً، وإلَّا كان عملاً غير مشروع، وهو لا يندرج تحت عنوان الدفاع الفردي والمصلحة الشخصية، فتشخيص واجب المكلَّف في مثل هذه الحالات إنما يكون للفقيه. «دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام، فقال: إني قتلتُ سبعة ممن سمعته يشتم أمير المؤمنين عليه السلام، فسألتُ عن ذلك عبد الله بن الحسن، فقال: أنت مأخوذ بدمائهم في الدنيا والآخرة... إلى أن قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**عليك بكل رجل قتلته منهم كبش تذبحه بمنى، لأنَّك قتلتهم بدون إذن الإمام، ولو أنَّك قتلتهم بإذن الإمام لم يكن عليك شئ في الدنيا والآخرة**»[١].

إنَّ أمر الولي الفقيه في الجهاد الدفاعي للجماعة جزءٌ من نَظْمِ الأمر، وإلَّا ساد الهرج والمرج والفوضى، ولا بدَّ للجماعة من يسوسها، ويقود مشروعها، ويستفيد من إمكاناتها، بدراسة واعية وإدارة حكيمة تحقق مصلحتها. ذكر المرجع الخوئي هذا المعنى

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٩، ص: ٢٧٢.

بقوله: «أنَّا لو قلنا بمشروعية أصل الجهاد في عصر الغيبة، فهل يعتبر فيها إذن الفقيه الجامع للشرائط أو لا ؟ يظهر من صاحب الجواهر (قده) اعتباره، بدعوى عموم ولايته بمثل ذلك في زمن الغيبة. وهذا الكلام غير بعيد بالتقريب الآتي، وهو أنَّ على الفقيه أن يشاور في هذا الأمر المهم أهل الخبرة والبصيرة من المسلمين، حتى يطمئن بأنَّ لدى المسلمين من العدة والعدد ما يكفي للغلبة على الكفار الحربيين، وبما أنَّ علمية هذا الأمر المهم في الخارج بحاجة إلى قائدٍ وآمرٍ يرى المسلمين نفوذ أمره عليهم، فلا محالة يتعيَّن ذلك في الفقيه الجامع للشرائط، فإنه يتصدَّى لتنفيذ هذا الأمر المهم من باب الحسبة، على أساس أنَّ تصدي غيره لذلك يوجب الهرج والمرج، ويؤدي إلى عدم تنفيذه بشكل مطلوب وكامل»[١].

وهذا ما ينطبق على العمليات الاستشهادية التي يقوم بها أفراد ضد تجمعات العدو، فلو ارتأى أحدهم أن يبادر إلى قيادة سيارة مفخخة ضد العدو، عليه أن يحصل على الإجازة الشرعية في جواز هذا العمل. ورُبَّ قائلٍ: ولكنَّه العدو! وعلينا أن نستغلَّ أيَّة فرصة لإيلامه؟ هذا صحيح، لكنَّ تقدير المصلحة والتوقيت وإعطاء المشروعية من صلاحية الولي الفقيه، فقد يرى أنَّ الظروف غير ملائمة، أو أنَّ الأضرار أكبر من المكاسب، أو أنَّ التهيئة لمباغتة العدو أفضل من الانكشاف بقدرةٍ محدودة تزيد من تسلطه على

---

(١) السيد الخوئي، منهاج الصالحين، ج١، ص: ٣٦٦.

الأمة، أو لأي سبب آخر. ليس مسموحاً للمؤمن أن يضحي بنفسه في سبيل الأمة من دون إذن شرعي، وهو مؤتمن على نفسه بالمحافظة عليها، وإلّا أُعتبر قاتلاً لنفسه، وهذا أمرٌ غير جائز، وبما أنَّ هدفه نبيل، فلا داعي ليحشر نفسه مع المنتحرين، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنَّ المؤمن يُبتلى بكل بلية، ويموتُ بكل ميتة، إلّا أنه لا يقتل نفسه**»[1]، فلتكن تضحيته من ضمن مشروع متكامل، يقرِّر معالمه الولي الفقيه، لاستثمار هذه التضحيات، بتظافر جهود الأمة لتحقيق مصلحتها.

الالتزام بالعهود

انسجاماً مع الاتجاه الإسلامي في تعميم السلام، وإقراراً بحق الاختلاف الفكري والثقافي، واعترافاً بوجود قوىً لا تسير على النهج الإيماني، فإنَّ إمكانية التعايش مع هذه القوى قائمة من جهة المسلمين، وعقد المعاهدات والاتفاقات ممكنة مع غير المسلمين، أكانوا من قبائل وبلدان مختلفة، أو كانوا يعيشون مع المسلمين في بلد واحد. فالقتال ليس هدفاً لذاته، وإنما هو طريق للحماية من الأعداء، فإذا لم يشكلوا خطراً ولم يعتدوا، وقبلوا التعايش والتمايز من دون تسلط واعتداء، فإنَّ التفاهم والتعاضد أولى وأفضل.

هذا ما عرضته لنا السيرة النبوية مطبَّقاً في أول دولة إسلامية على الأرض في المدينة المنورة، حيث أصدر الرسول صلى الله عليه وآله صحيفةً، أشبه

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص: ١١٢.

بالدستور بتعريف زماننا، تضمنت القواعد والأسس التي ستخضع لها المدينة بقيادة رسول الإنسانية محمدﷺ، والتي تنظِّم العلاقات بين الناس، وتضع الحدود السياسية والاجتماعية والإدارية لمن يعيش في كنف الدولة الإسلامية، فذكرت كيفية تنظيم العلاقة بين المسلمين واليهود، بأن يتحمَّل كلٌّ فريق مسؤولية تجهيز جماعته، والإنفاق عليهم من أجل الحرب، وأنَّهم يناصرون بعضهم في مواجهة أعدائهم، ويتبادلون النصيحة والبر. فقد ورد في الصحيفة: «**وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنَّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنَّ لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنَّ النصر للمظلوم**»[١]، «**وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإنَّ يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم**»[٢].

وساوت الصحيفة بين اليهود من قبيلة الأوس وأهل المدينة: «**وإنَّ اليهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة**»[٣].

بل عمَّمت أحكامها على كل مواطن، مهما كان دينه أو عرقه أو قبيلته، فوجوده في المدينة المنورة يرتِّب له حقوقاً على رأسها الأمن، فإذا ما ظَلَمَ أو افترى فله عقابه، وإذا ما برَّ وأحسن فله رغد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص: ٣٥٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص: ٣٥١.

العيش: «**ومن قعد آمنٌ بالمدينة، إلّا من ظلم أو أثِم، وإنّ الله جارٌ لمن برَّ واتّقى، ومحمد رسول الله ﷺ**»(١).

فالمسلمون عند عهودهم، إذا ما عقدوا معاهدة مع المشركين، وجب عليهم الالتزام بمضمونها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٢). ولا يحق لهم مخالفتها إلّا إذا خالفها المشركون، فإذا ما كانت تؤكد على عدم القتال وجب الالتزام بذلك، فإن نَكَثَ المشركون فمن حق المسلمين أن ينكثوا، لأن المعاهدة ساريةٌ بالتزام الطرفين، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣)، وقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾(٤).

أخلاقيات القتال

لأنَّ دين الإسلام قائم على الرحمة، وليس مبنياً على التشفي أو الانتقام من المنكسرين أو المهزومين والأعداء، وتعبيراً عن الأخلاق العالية للمسلم في كل مواقع تواجده وجهاده، فإنَّ على المقاتل أن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص: ٣٥١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢.

يراعي الآداب الإسلامية في المعركة ضد الأعداء، وأن يقدِّم النموذج الإنساني الراقي. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يبعث سَريةً، دعاهم فأجلسهم بين يديه، ثم يقول: سيروا بسم الله، وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملَّة رسول الله، ولا تغلُوا، ولا تمثِّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلَّا أن تضطروا إليها**»[1].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُلقى السُّم في بلاد المشركين**»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يُقتل الرُّسل ولا الرهن**»[3].

فإذا ما كان العقاب حقاً شرعياً، يجب أن يقتصر على الحدود المقررة من دون أي زيادة، فهذا أمير المؤمنين علي عليه السلام يوصي بأن يضرب ابن ملجم كما ضُرب تماماً، وأن لا يُمثَّل بالرجُل بتقطيع أعضائه أو ما شابه: «**والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله. وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم. يا بني عبد المطلب، لا ألفينَّكم تخوضون دماء المسلمين خوضا، تقولون قُتل**

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٥، ص: ٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص: ٢٨.
(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١٥، ص: ١١٧.

أمير المؤمنين، ألا لا تقتلنَّ بي إلَّا قاتلي، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربةً بضربة، ولا يُمثَّل بالرَّجل، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمُثلة ولو بالكلب العقور»[١].

وإذا ما تراجع المحارب، فأوقَفَ قتاله هارباً مستسلماً، لا يجوز ملاحقته لقتله، « يجوز الدفاع لو كان المحارب ونحوه مقبلاً، مع مراعاة الترتيب كما تقدم مع الإمكان، وأمَّا لو كان مدبراً معرضاً فلا يجوز الإضرار به، ويجب الكفُّ عنه، فلو أضرَّ به ضمن»[٢].

إنَّ المراقب لهذا التسلسل الذي عرضناه يرى بوضوح اتجاه الإسلام في الدعوة إلى الله تعالى، ورغبته في تعميم السلام على الأرض، وتسهيل الاتفاقات والمعاهدات بين المختلفين، فإذا ما تمَّ الاعتداء على المسلمين، فعليهم الدفاع بالحدود التي يأمنون معها على دينهم وأموالهم وأعراضهم، من دون انتقامٍ أو اعتداء على الأبرياء. وهذا ما يكشف أنَّ الإرهاب المنتشر في العالم اليوم، أكان من الدول أو الجماعات أو الأفراد، والذي يقتل الأبرياء العزل على الهوية، ولا يبالي بعدد القتلى من الأطفال والشيوخ والنساء، لا علاقة له بالإسلام، ولا يمتُّ بصلة إلى الجهاد في سبيل الله، فللجهاد قواعده الشرعية وأهدافه وآدابه وأخلاقياته، وهو ليس عبثياً،

---

(١) نهج البلاغة، ص: ٦٦٤.

(٢) الإمام الخميني(قده)، تحرير الوسيلة، ج١، ص: ٤٩٠

ولا يكون بقتل الآخرين، بل ليس مقبولاً أن يُعرِّض الإنسان نفسه للشهادة إلَّا في مواجهة الأعداء، وبأمرٍ من الفقيه، ولتحقيق هدفٍ نبيل ومهم يستحق هذه التضحية.

الجهادُ ليس إرهاباً، والإرهابُ ليس جهاداً، ولو غلَّفه صاحبه بآيات قرآنية وأحاديث شريفة، وقتلُ المسلمين بسبب الاختلاف في الرأي أو المذهب ليس مشروعاً، ولا يُبرره استخدام مصطلحات الرِّدة والكفر، ولا ينسجم تفجير العبوات الناسفة في المساجد والحسينيات مع أبسط تعاليم الإسلام في حرمة هذه الأماكن وقداستها، وحرمة روَّادها من المؤمنين والمؤمنات، ولا يقرُّ الشرع الإسلامي سوق الشاحنات المفخخة إلى الأسواق التجارية المكتظة بالناس، ولم يُفتِ بهذه الأعمال فقيهٌ من علماء المسلمين المخلصين. فإذا ما كان نبي الإسلام رحمةً للعالمين، كيف يدَّعي إتِّباعه من يقتل الناس، بل ويقتل المسلمين العزَّل المسالمين؟! إنما يكون الجهاد جهاداً في سبيل الله في مواجهة المعتدين والظالمين والمحتلين ممن يغزون بلاد المسلمين، وهذا ما أكدته الآيات والروايات الشريفة، وسيرة النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام والعلماء والصالحين.

الفصل الخامس

الدِّين خلاصُ الإنسانية

الإسلام رحمة للعالمين

أرسل الله تعالى مئة وعشرين ألف نبي منذ خلق آدم عليه السلام إلى ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وآله، فعن الإمام الباقر عليه السلام، عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**كان جميع الأنبياء مائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، فهم خمسة أولو العزم: نوح** عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وآله»[(١)]. وعن أبي ذر الغفاري: «**سأل رسول الله** صلى الله عليه وآله: **يا رسول الله: كم النبيون؟ قال** صلى الله عليه وآله: **مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي**»[(٢)].

اختلفت دائرة الدعوة إلى الله بين الأنبياء، فمنهم من أُرسل إلى مجموعة صغيرة في قرية، ومنهم من أُرسل إلى مجموعة أكبر، ومنهم من أُرسل إلى عدة قرى أو مدن، وتميَّز أولو العزم الخمسة بسعة دائرة دعوتهم وانتشارها. وقد أرسل الله الأنبياء بلغةِ أقوامهم، لذا اختلفت لغات الأنبياء والرسل بحسب الأقوام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص: ٢٢٤.
(٢) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص: ٣٣٣.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]. ومن أجل اتمام الحجة على البشرية، توزَّع الأنبياء على كل الأمم، بحيث وصلت الدعوة إليها بحدودها المقدَّرة من الله تعالى، في كل زمان ومكان، وهذا ما أخبر جلَّ وعلا نبيه محمداً ﷺ، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[٢].

اكتملت الرسالات السماوية برسالة الإسلام، التي شملت ما يهدي الإنسان إلى منهج الحياة الأفضل، فكانت معجزة القرآن الكريم الخالد، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣]، وأرسل الله سيد البشرية محمداً بالإسلام، خاتماً به النبوة ورسالته إلى البشرية، ومكلفاً إياه بدعوة الناس كافة، ليكون هذا الدين لزمانه وكل الأزمنة من بعده إلى يوم القيامة، ولأمته التي عاصرته وكل الأمم في أقطار المعمورة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]. هذه الشمولية للناس كافة تعبيرٌ عن الرحمة الإلهية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٥]، حيث أراد الخالق إرشاد الفطرة الإنسانية إلى صلاحها وكمالها، ليتحمل الإنسان بعد ذلك مسؤولية خياره في هذه الحياة.

وصف الله تعالى في القرآن الكريم إرسال محمد ﷺ

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

برسالة الإسلام بصفاتٍ تبيِّن الأهداف المأمولة منها، نذكر منها:

١ ـ **الهداية**: لو تُرك الناس من دون رسالة سماوية لوقعوا في مهالك تجاربهم القاصرة، وارتكبوا الأخطاء الفادحة، وضاعت معالم الطريق إلى الحياة المستقيمة والسعيدة. أمَّا مع إرسال الأنبياء، وخاصة خاتمهم محمدﷺ، فإنَّ سبيل الهداية متاح، وطريق الاستقرار الإنساني المنسجم مع الفطرة واضحة المعالم، فلا عذر لأحدٍ في يوم القيامة إذا ما حاد عن طريق الهدى إلى الضلال، ولذا، انسجاماً مع التخيير الإنساني في الإيمان بالمنهج الإلهي أو عدمه، سنكون أمام احتمال الهداية بحسب اختيار الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

٢ ـ **الحق**: العقل مرجعية التقييم للاختيار، فإذا ما استند إلى معلومات يقينية تميِّز بين الحق والباطل، تمكَّن من إصدار الأحكام الصحيحة. وبما أنَّ الخالق قد بيَّن لنا عبر الرسالات السماوية ما يُصلح شؤوننا، فحدَّد الحلال والحرام، فهو الحق، لأنَّه الأدرى بمتطلبات خَلْقِه، ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[٢]. وعلى الرغم من الانحراف والفساد

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

على مستوى البشرية، فإنَّ القواعد الصحيحة التي اعتمدت عليها في حياتها مستمدةٌ مما ترسَّخ واستقر في حياة الشعوب من رسالات الأنبياء، ولم يفلح دعاة التجديد والفكر المستقل في تثبيت قواعد أخرى محقة مقابل القواعد الإلهية. ولا يتغير الحق مع الإنكار والجحود، فلو تجرَّد الإنسان وتصرَّف بموضوعية ولم ينجرف في الأهواء والملذات، لأقرَّ من دون تردد أنَّه الحقُّ من عند الله تعالى.

٣ ـ **الشقاء**: يتعرض الإنسان للشهوات والمفاسد والمنكرات، فتصيبه الأمراض في نفسه، وهي أمراضٌ معنوية لها آثار مادية مؤذية، فعندما يميل إلى الملذات المحرَّمة، يرتكب المنكرات والآثام، ثم يعتاد عليها، فتتحول حياته إلى جحيم الظلم والأنانية والفحشاء، فلا يهتدي إلى طريق الراحة الأبدية. القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض النفس الإنسانية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ففيه الموعظةُ التي توقظ، وكلمة الله تعالى التي تهدي، وإرشادُ المؤمنين إلى ما يرحمهم ويُسعد حياتهم. تبدأ كل الأمراض المعنوية من النفس، ويكون علاجها الأفضل بدين الله تعالى، الذي ينهى النفس عن الهوى، ويعمل لشفائها، لتصل إلى مرحلة الطمأنينة، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ و ٢٨.

٤ ـ **النور**: الظلمات كثيرة والنور واحد. تشمل الظلمات الجهل والانحراف والتكبر والأنانية والضلال والفساد والشهوات والظلم والطغيان والعدوان... وتتراوح مستوياتها ويختلف شياطينها ومروِّجوها، وينحصر النور بخالق النور الواحد الأحد رب العالمين، الذي يهدي إلى العلم والاستقامة والتواضع والإيثار والهداية والصلاح والحلال والعدل... تُخرج رسالةُ محمد ﷺ الناس من الظلمات إلى النور: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1]. فإذا ما سلك المؤمن طريق النور، وسار على الصراط المستقيم، نال خيرات الدنيا بطهارتها، وجنة الآخرة بعطاءاتها الخالدة.

إنَّ تهيئة الله تعالى لسبل الهداية للإنسان، بإحاطته من داخل نفسه بالفطرة التي تحمل قابلية الاستقامة، والعقل الذي يساعد بميزانه للتمييز بين الحق والباطل، ومن ساحة الكون بدقة تنظيمه وعظمته المشيرة إلى الخالق المدبر، ومن الرسالات السماوية التي فصَّلت وحدَّدت ورسمت الطريق إلى الله تعالى، كل هذا لا يعني أن تتحقَّق الهداية بشكل آلي، بل لن يؤمن أكثر من في الأرض منجذبين إلى ملذات الدنيا، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[2]. إلَّا أنَّ إرادة الله تعالى أن ينتشر دينه، ويعم المعمورة قبل نهاية الحياة البشرية على الأرض، أي قبل يوم القيامة، وأن تتهيأ الظروف التي يسود فيها

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

العدلُ الأرض، هذا ما وعدنا الله تعالى به، قائلاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[١]. وأمّا تطبيق هذه الآية فلم يحصل فيما مضى من الزمان، وقد رُوي «**أنَّ علياً** عليه السلام **تلا قوله تعالى**: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، **وسأل الحاضرين بمجلسه: أَظَهَر بعد ذلك؟ قالوا: نعم؟. فقال: كلا فوالذي نفسي بيده، حتى لا تبقى قريةٌ إلَّا ويُنادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله، بكرة وعشياً**»[٢].

وسُئل الإمام الباقر عليه السلام عن تفسيرها، فقال: «**إنَّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد، فلا يبقى أحدٌ إلَّا أقرَّ بمحمد** صلى الله عليه وآله»[٣].

الإسلام يتجاوز الحواجز

أنزل الله تعالى القرآن الكريم باللغة العربية، إنسجاماً مع لغة القوم في مكان نزول الرسالة، إلى أم القرى مكة المكرمة ومن حولها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٤]. فضلاً عن أنَّ مميزات اللغة العربية في البلاغة والمعاني والدلالة والاشتقاق... ما يساعد على الاستفادة من المضامين التي تواكب حركة المستقبل،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٤، ص: ٤٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص: ٤٥.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.

في إطار خلود وثبات خطاب الله تعالى للبشرية، من خلال القرآن الكريم المحفوظ والمستمر إلى يوم القيامة. ولن يستفيد الجهلة من هذه اللغة ولا من غيرها ما لم يمتلكوا العلم الضروري لفهم معاني الألفاظ، وأسباب وظروف نزول الآيات، وعمق المضمون بشكلٍ مترابط ومتكامل وشامل لكل آيات القرآن الكريم، وكيفية الاستفادة من هذا الدين العظيم في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١].

إلّا أنَّ اللغة لا تقف حاجزاً أمام عالمية الإسلام وانتشاره، حيث يمكن ترجمة القرآن الكريم والروايات والسيرة إلى لغات الشعوب المختلفة، كما يمكن لبعضهم أن يتعلم لغة القرآن ويستفيد من تعاليمه، وقد أثبتت التجربة خلال أكثر من ١٤٣٠ سنة على بعثة النبي ﷺ سعة انتشار الإسلام بين شعوب لا تتحدث اللغة العربية، فالعرب اليوم أقل من ١/٦ من المسلمين في العالم (حوالي ٢٥٠ مليون من مليار ونصف المليار مسلم).

وبما أنَّ إرادة الله تعالى أن تختلف ألوان وأَلسِنَةُ البشر، فقد أرسل إليهم الأنبياء بحسب لغة كل قوم على امتداد المعمورة، وعبر الأزمنة المختلفة، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢]، ولا يوجد أي دور للغة أو القوم

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

في العصبية للرسالة، فالمؤمنون يلتزمون بمضمون الرسالة كهدف، ولا قيمة للمفاخرة والتباهي لمجرد ارتباط القرآن باللغة العربية، فالعبرة للعمل بمضمونه، ولا تفاوت في تقييم البشر بسبب لُغتهم بل بمستوى إيمانهم وتقواهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١)، فالأكرم عند الله تعالى هو الأتقى، من أي قوم كان، وبأي لغةٍ نطق.

ولا يجوز الانحياز إلى أي قوم أو جماعة بسبب قوميتهم، فالقومية لا تقف حاجزاً أمام عالمية الإسلام وإنسانيته، فالمؤمنون من قوميات مختلفة، كما نجد المختلفين في الفكر والسلوك، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار داخل القومية الواحدة. فقوم موسى عليه السلام كجميع الأقوام، منهم جماعة يهدون إلى الحق، ومنهم جماعة ينحرفون عنه، قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾(٢). واعترض الوجهاء من قوم نوح عليه السلام بأنَّ أتباعه المؤمنين من المستوى الاجتماعي الأدنى، ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣)، ففي القوميات رابطة اللغة غير كافية في تآلف الناس مع بعضهم واتفاقهم حول قضاياهم، بينما يُعتبر الإيمان عابراً للقوميات.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١١١ ـ ١١٥.

ولا تقف الوطنية حاجزاً أمام طبيعة الإيمان بالله تعالى، فالحدود الجغرافية لا تمنع الإنسان من أن يختار دينه وقناعاته، ولا يتعارض حبه لوطنه وتمسكه به مع التزامه الإيماني وطاعته لله تعالى، بل نجد المختلفين في الرأي داخل الوطن الواحد، يجتمعون في قضايا، ويتناقضون في قضايا أخرى، من دون أن يخدش هذا التباين انتماءهم الوطني.

إقامةُ الدِّين

تهدف الرسالات السماوية كمنظومة متكاملة ومترابطة، وعلى رأسها الإسلام، إلى إقامة الدين على الأرض، في حياة الناس الفردية وعلى مستوى جماعتهم، ودعت المؤمنين إلى الالتزام بالدين وعدم التفرقة فيما بينهم، وإن كان المشركون في المقلب الآخر لا يؤمنون به، ويرفضون منهجه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[1]. وقد أكَّد أمير المؤمنين علي عليه السلام على وحدة الدين بقوله: «**ألا وإن شرائع الدين واحدة، وسبُلُه قاصدة، فمن أخذ بها لحق وغنم، ومن وقف عنها ضلَّ وندم**»[2]. وما يثبت معيار وحدة الدين وحدة الأهداف التي تسعى إليها كل الرسالات السماوية، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**غاية الدين:**

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص: ١٤٢٨.

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود»[١]، وقال الإمام زين العابدين عليه السلام لما سُئل عن جميع شرائع الدين قال: «**قول الحق، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد**»[٢].

وقد مرَّت الرسالات السماوية بمراحل عدة في التاريخ، وأنجزت كمالها وتمامها فشملتها رسالة الإسلام خاتمة الرسالات على يد خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أخبرنا الله تعالى عن رضاه بالإسلام ديناً كاملاً تاماً، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٣]، وعدم رضاه عن غيره، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٤]، فهو الخالق الذي اختار الأنفع للناس في دنياهم وآخرتهم، وهو ما أرسله إليهم عبر أنبيائه، فذكَّرهم بأنهم خاسرون عندما يعودون إليه للحساب في يوم القيامة إذا لم يؤمنوا بالإسلام ويعملوا وفق منهجه.

هذه الدعوة إلى الإسلام منسجمةٌ مع متطلبات الفطرة الإنسانية التي خلقنا الله تعالى عليها، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٥]، ولذا تجد الإنسان يميل بسرعة إلى الدين

---

(١) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص: ٩٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص: ١٤٢٩.
(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٥) سورة الروم، الآية: ٣٠.

عندما يتعرف عليه، وإنما يبتعد عنه الجاهلون به، أو المعاندون الذين لا يرغبون معرفة الحقيقة. ولأنَّه دين الفطرة فلا حرج فيه ولا صعوبات، ففيه الحلول لمشاكل الإنسان، وإذا ما تطَّلب الإيمان جهاداً ومعاناة فلأنَّ هوى الإنسان ورغباته تستسهل الملذات المحرَّمة، ولأنَّ الأجواء المنحرفة المحيطة به تؤثِّر عليه وتعيق التزامه بالدين والاستقامة، فيكون جهاد النفس طريقاً لامتلاك قوة مواجهة التحديات والمغريات بهدف الالتزام بتشريعات الدين، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

إنَّ فهم حقيقة الدين يتطلب متابعة خطوات الالتزام به برفقٍ وتمهّل، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكرهوا عبادة الله إلى عباد الله**»[2]. فتشريعات الدين تجيب عن كل الأسئلة، وتوضِّح كل معالم الطريق، وتعطي الحلول لكل المشاكل المتوقعة في حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾[3].

أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله لهداية البشر بتوجيههم إلى

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، ص: ٨٦.
(٣) سورة النحل، من الآية: ٨٩.

صلاحهم وسعادتهم، ولكنَّه لم يقهر عباده على الإيمان، ولم يجبرهم على طاعته، بل ترك لهم كامل الحرية ليؤمنوا أو يكفروا، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)]. لكنَّه دعاهم إلى عبادته، ورغَّبهم بها، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)]، وأعلَمهُم بأنَّه سينشر الدين على كل المعمورة من خلال المسار الإنساني الدنيوي، وبحسب القوانين التي وضعها على الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[(٣)]. وأمر المؤمنين بأن لا يستخدموا أية قوة لإلزام الكافرين بدينهم، أو لمقاتلتهم بسبب كفرهم، بل أن يبروهم ويقسطوا إليهم إذا ما تركوهم لإيمانهم ولم يعتدوا عليهم ولم يخرجوهم من أرضهم، أمَّا إذا اعتدوا على المؤمنين وأرادوا نهيهم عن دينهم، وحاسبوهم على التزامهم بطاعة الله، وأخرجوهم من أرضهم، فعندها يجب عليهم القتال والدفاع عن أنفسهم وأرضهم، ورفض تسلط الكافرين عليهم إذا ما أرادوا قهرهم بسبب دينهم وعبادتهم وظلموهم في أرضهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

إنَّنا أمام صورة رائعة لحرية الاختيار الإنساني في الحياة، فالله الخالق القدير العليم يعرض دينه، ويقدمه كاملاً للبشرية، ولا يُلزم أحداً به، ويأمر عباده بالطاعة عن قناعة وإيمان، على أن لا يُلزموا أحداً بعبادة الله، وأن يكتفوا بالدفاع عن دينهم ووجودهم في مواجهة الظلم والعدوان، واعداً المؤمنين بالنصر في الدنيا والثواب في الآخرة، ومحذراً الكافرين من الخسران المبين.

الحكم بغير ما أنزل الله تعالى

كيف يُقِيْمُ المؤمنون الدِّين ؟

على المؤمنين أن يحكموا في حياتهم بما أنزل الله تعالى عليهم، فليحكم أهل التوراة بما أنزل الله عليهم، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله عليهم، وليحكم المسلمون بإسلامهم، فمن وجد منهم ما يحتاجه عند الآخر فليعد إليه في إطار تكامل الرسالات السماوية وجامعها الإسلام، لأن الخروج عنها إلى غيرها قد يؤدي إلى خروجٍ عن كامل الدين في الحياة، خاصة عندما تكثر المسائل التي يعود فيها الإنسان إلى خياراته بعيداً عن تشريعات السماء.

فالدين ليس مجرَّد توجيهات فردية للصلاة والصيام ومناجاة الله تعالى، إنما هو تنظيمٌ لكامل حياة الإنسان في علاقته مع ربه ونفسه

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ و ٩.

ومجتمعه، وإذا ما كان ينظم شؤون المجتمع ـ كما في الإسلام ـ فهي دعوة لطاعة الله تعالى في حكم المجتمع وعلاقات الناس فيما بينهم.

ذكر القرآن الكريم توصيفاً للحكم بما أنزل الله تعالى في آيات ثلاث من سورة المائدة، قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١).

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(٢).

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾(٣).

يبرز دور الأنبياء في تبيان المسار الإيماني للناس وهو الحق من ربهم، بعرضه عليهم، مبشرين بالنتائج الحميدة للإيمان، ومنذرين بالأضرار البالغة للكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤). فالأنبياء مبلِّغون لرسالة السماء

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

بالإقناع والدليل، ومعلمون للأحكام الإلهية من أجل الهداية والصلاح، ومربُّون للناس بتوجيهاتهم وسلوكهم لتزكية الأنفس باتجاه الاستقامة.

إنَّهم لجميع الناس، لا ينحازون، ولا يتعصبون، ولا يميزون أعراق الناس وألوانهم وقومياتهم وأوطانهم. إنَّهم لجميع الناس، ليست لهم مصالح خاصة، ولا يعملون لأهدافٍ دنيوية، ولا يسعون للزعامة أو العشيرة، ولا يبتغون سلطةً على الرعية.

إنَّهم لجميع الناس، يرغبون هدايتهم، ويصبرون على معاندتهم، ويقدمون لهم الأسوة الحسنة، ويعدونهم بالجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

إنَّهم لجميع الناس، يقصدونهم في بلدانهم، ويجتمعون مع فقرائهم وأغنيائهم، ويسعون لأُلفتهم وتعاونهم، ويأملون الأجر من عند الله تعالى على ما فعلوه.

حدَّثنا القرآن عن إرسال محمد ﷺ إلى جميع البشر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١)، والهدف المركزي هو الرحمة الإلهية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢)، إذ أنَّ ترك الناس من دون رسالة إلهية يجعلهم يتخبطون في تجاربهم وخياراتهم القلقة الخاطئة، أمَّا مع إرسال الأنبياء، فتتضح طريق الحياة السعيدة، بسبب إرشادات الخالق

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وتوجيهاته عبر رسله، وهذه رحمة بالإنسان توفِّر عليه التجارب، وتحميه من الضلال.

ليس من المتوقع أن يؤمن جميع الناس على الرغم من الحجة الإلهية البالغة، بل أخبرنا القرآن الكريم بعدم إيمان أكثرهم، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. فالإيمان أمرٌ اختياري للإنسان، تواجهه مغريات دنيوية جذَّابة، تحرف أكثر الناس عن الطاعة لله تعالى، لأنهم لا يبذلون الجهد الكافي لمواجهة الرغبات المحرَّمة، ولا يصبرون للثبات على الإيمان. وقد شاء الله تعالى للإنسان منذ خلقَهُ على هذه الأرض، أن لا يكون مقهوراً على الإيمان، ولو شاء الله لآمن كل الناس، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، ولكنَّ مشيئته أن يكون الإنسان حراً في الإيمان أو عدمه، فهو لم يلزم الناس، ولا يريدنا أن نلزمهم، أو أن نستخدم الوسائل التي تقهرهم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[3].

يتحمَّل كل إنسان مسؤوليته بمعزلٍ عن الآخرين، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[4]، وعلينا أن نحمل

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

أمانة الأنبياء والرسل في دعوة الناس إلى طاعة الله تعالى، حيث يرتفع تكليفنا وتتوقف مسؤوليتنا عند حدود الدعوة، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[1]. فكما لا يكون الإيمان قهرياً للناس، لا يكون إقامة الحكم الإسلامي قهرياً، ولا يكون إقامة الدين في المجتمع قهرياً، وعلينا أن نميِّز بين واجبنا في الدعوة إلى الإيمان والحكم الإسلامي وإقامة الدين، وبين عدم استجابة الناس لنا، فنحن لا نتحمَّل مسؤولية عدم استجابة الناس أمام الله تعالى، طالما أننا قمنا بواجبنا في الدعوة والسعي إلى إقامة حكم الله تعالى بحسب إمكاناتنا وظروفنا، عندها يكون تقييمنا في يوم القيامة بحسب أدائنا وقيامنا بواجباتنا.

إذاً كيف يتعامل المؤمنون في هذه الدنيا مع مخالفيهم؟

ليس المطلوب أن نعيش حدِّية المعسكَرَين، وعزلة كل منهما عن الآخر، بل المطلوب أن نُبقي معسكر الإيمان ثابتاً ومحصَّناً وقادراً على التعبير عن نفسه بدعوته إلى الله تعالى، وأن نبحث عن القواسم المشتركة التي تقرِّبنا من الآخرين وتقرِّبهم منّا، على قاعدة التعاون الإنساني بالحد الأدنى أملاً بالمستويات الأعلى.

طرح الإسلام قواسم مشتركة مع أهل الكتاب لإيجاد قاعدة التعاون الإسلامي بين المختلفين في الرسالات السماوية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

(١) سورة الشورى، من الآية: ٤٨.

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[(١)]، وطرح التعاون على البر والتقوى مع من يقبل بهذه الحدود على المستوى الإنساني، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾[(٢)]، وأسَّس لإبقاء التواصل بسلوكٍ إسلامي نبيل مع الذين لا يقاتلون المؤمنين ولا يعتدون عليهم، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[(٣)].

هذه النماذج من الانفتاح والتعاون تؤسس لكل أشكال التعاون داخل المجتمع الواحد، وهذا ما يشمل النظام السياسي الذي يمكن بناؤه على القواسم المشتركة التي يرضى بها المواطنون في البلد الواحد، مع الحفاظ على قاعدتين أساسيتين:

الأولى: أن يمتنع المؤمنون عن تشريع ما يخالف الشريعة المقدسة، بحسب إمكاناتهم وصلاحياتهم وقدرتهم على ذلك.

الثانية: أن تبقى دعوتهم الأصيلة للحكم بما أنزل الله تعالى قائمة على المستوى النظري، إذ لا يملكون صلاحية إلغاء مشروعية ما شرَّعه الله تعالى، ولكنَّهم لا يتحملون مسؤولية عدم تطبيقه عند عجزهم عن ذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٢) سورة المائدة، من الآية: ٢.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

المقاومة تجربة معاصرة

يدور النقاش دائماً في لبنان وفي المنطقة حول المقاومة وأهميتها ودورها، وعجباً يُناقش هؤلاء، على قاعدة أن التجارب العملية عندما تعطي إثباتاً مادياً حسياً لا يعود هناك إمكانية للنقاش والتحليل، أثبتت المقاومة بالدليل العملي أنها حرَّرت الأرض، وأثبتت القرارات الدولية بأنها ثبتت الاحتلال، وأثبتت الدول الكبرى بأنها منحازة إلى إسرائيل ولا تريد إعادة فلسطين والقدس والأراضي المحتلة، وأثبتت الدول الغربية أنها لا تملك حس العدالة والإنسانية لأنها تقف إلى جانب المعتدي الظالم إسرائيل في مقابل الفتى والمرأة والشيخ الفلسطيني الذين يعذبون ويضيق عليهم ويقتلون في كل يوم، هذه الأدلة موجودة أمامنا، هل نحتاج إلى تحليل كبير عن أطروحة القرار ٤٢٥، الذي تحول إلى نكتة إسرائيلية عندما كانوا يسخرون من لبنان عندما يتحدثون عن القرار ٤٢٥، يقولون: أين هو؟ نريد أن نفتش عليه، وأن نتعرف عليه!.

علَّمهم المقاومون بأن التحرير لا يرتبط بالقرار ٤٢٥، ولا بمجلس الأمن، إنما يرتبط بسواعد المجاهدين وعطاءات المجاهدات، وأنهم يستطيعون تغيير المعادلة. هكذا خرجت إسرائيل من لبنان سنة ٢٠٠٠ غصباً عنها، بعد ٢٢ سنة من الاحتلال، تجر أذيال الخيبة وراءها، ومعها أمريكا ومجلس الأمن، يجرون أذيال الخيبة، لأن إسرائيل طُردت من دون أي شك، واستعدنا أرضنا بشرفٍ وكرامةٍ، من دون أن ندفع ثمناً سياسياً مقابلاً، لنثبت للعالم

بأن المقاومة هي التي تحرر، وأنَّ القرارات الدولية أداةٌ استكبارية لقتل شعوبنا، وهذا ما أثبته القرار ٤٢٥.

حصل التحرير في ٢٥ أيار سنة ٢٠٠٠، وبدأنا إعداد العدة ابتداءً من ٢٦ أيار سنة ٢٠٠٠، كان بعض الناس يقولون: انتهينا من إسرائيل. كنا نقول لهم: إسرائيل ستحاول مرة ثانية وثالثة ورابعة، يجب أن نستعد، لم يشعر الكثيرون باستعدادتنا، لكننا كنا نعمل ليل نهار، ونحن نتوقع في يوم من الأيام أن تعتدي إسرائيل، وقد استطاعت المقاومة الإسلامية خلال ٦ سنوات أن تبني منظومة قتالية مترابطة، وأن يكون لديها التفاف شعبي حامٍ لها، ما مكَّن حزب الله في عدوان تموز سنة ٢٠٠٦ أن يقهر إسرائيل، وأن يذلها، وأن يحقق نصراً عظيماً في لبنان، لم يرَ العرب والمسلمون والكثيرون في العالم مثل هذا النصر بهذه الخصوصية، على الأقل خلال مئات السنين الأخيرة، لتثبت المقاومة مجدداً، أنها بالتوكل على الله أولاً، وبالإرادة الحرة ثانياً، قادرة على أن تصنع عزَّها، وأن تدافع عن أرضها وشعبها، وهكذا انتصرت المقاومة، وانتصر لبنان، وانهزمت إسرائيل ومعها المهزومون في منطقتنا، ليُسجل تاريخ جديد سطرته المقاومة الإسلامية وإن شاء الله يكون المسار الذي يحكم كل الفترة القادمة بإذن الله تعالى.

اليوم انتقلت المقاومة من الحلم إلى المسار، ومن الأمنية إلى الواقع، ومن الفكرة إلى المشروع، لم تعد المقاومة أغنية على المنابر بل أصبحت مساراً في حياة الجميع من دون استثناء، لم تعد

المقاومة تأثيراً في أروقة الجامعات أو المؤسسات أو المنتديات بل أصبحت حياة يعيشها كل واحد منَّا، وبالتالي هذا الزمن هو زمن المقاومة، وهو عصر المقاومة، وسجلوها عليَّ: عصر المقاومة بدأ ولن نعود إلى الوراء، ولا إمكانية لأي عصرٍ آخر في مواجهة عصر المقاومة، سيبقى هو الأساس وسيؤثر على كل مجريات منطقتنا، ولا يستطيع أحد أن يُقفل الباب على المقاومة ليعيدنا إلى الاستسلام، فنحن في زمن العز والانتصار، وهذا سيستمر بإذن الله تعالى.

لا تستطيع إسرائيل إخفاء اعتداءاتها اليومية على لبنان، وكل العالم يعرف بأن إسرائيل تخترق الأجواء اللبنانية حوالى ٢٠ مرة في اليوم، ماذا فعل العالم وماذا فعل مجلس الأمن؟ لا شيء، لأنه متواطئ مع إسرائيل، وإلَّا كان يجب أن يشنوا حرباً دولية على إسرائيل، أو أن يضيِّقوا عليها، أو أن يمارسوا عقوبات اقتصادية وسياسية عليها، ولكن ما نراه هو العمل لتطبيع علاقات إسرائيل مع العرب، وإعطاء إسرائيل الإمكانات الأمريكية، ومحاولة الساسة الأوروبيين أن يتقربوا من إسرائيل علَّها ترضى عنهم ليكون لهم دور، هذا الموقف يؤدي إلى المزيد من التأزم في منطقتنا. إن الاعتداءات التي تحصل اليوم في غزّة على الشعب الفلسطيني، على الطعام والشراب والكهرباء والدواء، هي جريمة موصوفة في القرن الواحد والعشرين، ويتحمل مسؤوليتها المجتمع الدولي بأسره، لأنه لا يفعل شيئاً من أجل هؤلاء المستضعفين. إذاً أمام هذه الاعتداءات كيف نتصور حلاً للقضية الفلسطينية؟ الدول

الغربية وأمريكا يعطِّلون الحلول في منطقتنا، ويساهمون في وجود إسرائيل، ويتبنون الإرهاب الإسرائيلي في مقابل الحق الفلسطيني والعربي، وهم يشجعونها على العدوان، وهذا ما يجعلنا أمام معادلة وحيدة هي معادلة المقاومة.

ليس لدينا خيار آخر غير المقاومة، والمقاومة هي رد فعل على الاحتلال والعدوان والظلم، وقد أثبتت جدواها، ولا إمكانية لأي خطوة أخرى نلجأ إليها، هذه المقاومة ومن خلال التجربة اللبنانية كنموذج، هي ضرورة لعدة أسباب:

أولاً: المقاومة تعطي قوة للبنان وتمنع إضعافه، وأولئك الذين يتحدثون عن نزع السلاح يلطفون العبارة، لأنهم يخشون أن يقولوا: نريد إلغاء المقاومة! وإلّا ما المقاومة؟ فالمقاومة هي هذه القدرة العسكرية التي تواجه، هؤلاء الذين يريدون إلغاء المقاومة يريدون إضعاف لبنان لإعطاء إسرائيل مجالاً لتصنع ما تشاء، وبذلك يقدمون خدمة مجانية لإسرائيل.

ثانياً: هذه المقاومة تملك سلاحاً وقوة، وهذا السلاح وهذه القوة تتكامل مع الدولة اللبنانية، لأنَّ اتجاه سلاح المقاومة ضد إسرائيل، وهو جزء من وظيفة الدولة، ولا يأخذ مكانها على الإطلاق.

ثالثاً : هذه المقاومة مبنية على فكرة القوة والسيادة والتحرير، وهي ليست ردة فعل عشوائية، بل مشروع متكامل، وهنا أهميتها وفعاليتها.

رابعاً: عطَّلت المقاومة استخدام لبنان كساحة لإسرائيل،

وإعاقت مشروع التوطين، ووضعت عقبات كبيرة أمام مشروع الشرق الأوسط الجديد بالمنظور الأمريكي الإسرائيلي.

خامساً: معادلة القوة صنعتها أيدي أبناء لبنان، وبالتالي كل المخططات الأجنبية ستنكشف عند مواجهة إرادة هذا الشعب الطيب الأبي.

مجتمع المقاومة

تتكامل المقاومة مع إقامة مجتمع المقاومة، ونعني بمجتمع المقاومة عدة أمور:

أولاً: مجتمع المقاومة هو تكامل بين الناس، بحيث يعطي الجميع، فيمارس كل فردٍ من أفراد المجتمع حياته الطبيعية، في المدرسة أو الجامعة أو المعمل أو المتجر أو ما شابه، وإذا ما تطلبت المواجهة مشاركته فيها يشارك بمقدار ما تتطلب، ثم يعود بعد ذلك إلى عمله بشكل طبيعي، وهنا يصبح المجتمع بأسره مجتمع مقاومة، يقدم ما يُطلب منه، ويتابع حياته بشكل طبيعي، إذ ليس مجتمع المقاومة هو المجتمع الذي يوزع فيه السلاح عشوائياً على كل الناس، إنما مجتمع المقاومة هو الذي ينظم الطاقات والقدرات لتتكامل في عملية المواجهة عندما نحتاج إلى المواجهة. هذا المجتمع كان موجوداً بنموذج معين في عدوان تموز سنة ٢٠٠٦، لقد انتصرنا في لبنان ليس بالمقاومة فقط بل بمجتمع المقاومة أيضاً، لأن المقاومين كانوا يقاتلون بالسلاح، والمهجرين في الأماكن المختلفة يعبرون

إعلامياً وسياسياً عن الصمود والصبر والتحمل، وقسم من أفراد الشعب اللبناني يحضن عوائل المقاومين والمهجرين، وقسم آخر مستعد للدفاع الخلفي، هنا تكاملت الصورة مع رأس الحربة التي نفذتها المقاومة، فربحت المقاومة في مواجهة إسرائيل وفي مجتمعها الداخلي، هذا هو مجتمع المقاومة الذي ندعو إليه.

ثانياً: نحن نرفض عسكرة المقاومة بجعلها محصورة في مجموعات، ونطالب بمجتمع المقاومة لنضيق الخناق على المشروع الإسرائيلي من كل جانب، فهذا المشروع هو الذي يحصِّن لبنان.

ثالثاً: مجتمع المقاومة يحمي الدولة اللبنانية من الضغوطات الخارجية، ويقوي موقعها وموقفها.

رابعاً: مجتمع المقاومة يسد المنافذ الأمنية والسياسية والاقتصادية في وجه إسرائيل، لأنها من أي باب دخلت عسكرياً أو أمنياً أو سياسياً ستجد سداً منيعاً من الناس، وهذا ما يجعلنا نستطيع الوقوف والمواجهة.

نعم، نحن ندعو إلى مجتمع المقاومة، لأنه لا يوجد حل في لبنان في مواجهة إسرائيل إلَّا بالمقاومة، لن نجرب مع الآخرين السياسة والدبلوماسية، وليجربوا كما يريدون، لكن لن نجرب قدرتنا وقوتنا لمصلحة فكرة أثبتت فشلها، نريد أن نحافظ على هذه القوة لننقلها إلى مواقع أفضل، ومن أجل أن نستفيد منها في أي واقع مستقبلي قادم.

المقاومة والإرهاب

استخدمت أمريكا والغرب مصطلح الإرهاب كتهمة ضد كل من خالفهم سياسياً، بصرف النظر عن أحقية هذه القناعات والمنطلقات والأهداف، فساووا بين الجماعات التي تقتل الأبرياء وتفجر المؤسسات المدنية، وبين الذين يقامون الاحتلال في بلدهم بمواجهة الجنود المحتلين، ولم تفلح محاولات الدول العربية والإسلامية في استصدار تعريف دولي للإرهاب عن الأمم المتحدة، بل قدَّم الاتحاد الأوروبي صياغة تحمل في طياتها إضافة كل المعارضين لسياسته من دون تحديد دقيق للتمييز بين المقاومة والإرهاب.

استهدفت أمريكا والغرب المسلمين بمصطلح الإرهاب أكثر من غيرهم، لأنَّ الحراك السياسي في مناطق المسلمين أكثر حيوية، فالمشاكل التي تعصف بهم بسبب الأطماع الاستكبارية في بلدانهم كثيرة ومعقدة، والمحاولات الحثيثة للسيطرة الأجنبية على ثرواتهم وسياساتهم تتصدر اهتمامات الدول الكبرى، وهذا ما أدَّى إلى نمطين من المواجهة: النمط المقاوم المشروع الذي له أهداف تحريرية واستقلالية، والنمط الإرهابي الذي يعمل على نشر القتل والفوضى من دون قيود.

صنَّفت أمريكا والغرب المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي إرهاباً، واعتبرت قتل الإسرائيليين للمدنيين الفلسطينيين دفاعاً عن النفس، وصنَّفت المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال

الإسرائيلي للبنان إرهاباً، وأعطت الحق لإسرائيل أن تقصف المدنيين وتجتاح لبنان بحجة الدفاع المشروع، وصنَّفت أمريكا المقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي للعراق إرهاباً، ونظَّرت لاعتداءاتها العسكرية على المدنيين بمتطلبات المصلحة القومية الأمريكية والأمن العالمي. فالمقاومة للمحتل الأمريكي أو الصهيوني إرهابٌ في نظرهم، والاحتلال أمر مشروع بكل مستلزماته ونتائجه وآثاره المدَّمرة، بينما إذا عدنا إلى قواعد الحق ومقياس العدل من دون الخضوع لموازين القوى الدولية التي تفرض منطقها وشعاراتها، فإنَّ المقاومة للاحتلال أمر مشروع وحقٌّ أصيل، بل هو واجب على كل من أُحتُلت أرضه، وأنَّ الإرهاب يتمثل بالاحتلال وكل أنواع العدوان والقتل للمدنيين الأبرياء، سواء صدر عن الدول أو عن المجموعات المسلحة، وبصرف النظر عن الخلفية الفكرية أو السياسية التي ينطلق منها هؤلاء.

لا توجد أي علاقة بين الإسلام والإرهاب المزعوم، فالإسلام دين الرحمة، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾(١)، ودين الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(٢)، ويتميز بأرقى أخلاقية في التعامل الاجتماعي،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١]، وإنما كانت دعوته إلى الجهاد دفاعية، لحماية الفكر الإسلامي ومجتمع المسلمين من اعتداءات الكافرين والظالمين والمحتلين، ومن الذين يريدون فرض قيمهم بالقوة، وسلب خيرات المسلمين وأراضيهم بالسيطرة والاستعمار.

وكي تتضح الصورة، علينا أن لا نقرأ آيات الله تعالى مجزَّأة أو مُجتزأة، بل بتكامل يوضح لنا المعنى المقصود. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] فالتوجيه للمؤمنين بأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، أي أن يدافعوا عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأراضيهم ضد المعتدين، مع التأكيد على عدم الاعتداء لأن الله لا يحب المعتدين، وإنما أمر الله بالقتال دفاعا. وأما قوله تعالى ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي حيث وجدتموهم، فلأنَّهم متلبِّسون بالجرم المشهود، فهم معتدون، ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ لتستعيدوا حقوقكم، وهذا لن يتحقق إلَّا بالقتال الشديد، فشدة البأس عند المؤمنين تهزم المعتدين، فإذا تعلَّق الأمر بحرمة القتال عند المسجد الحرام في الأشهر الأربعة الحُرُم، فبإمكانكم أن

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات ١٩٠ ـ ١٩٣.

تتجاوزوا الحرمة إذا ما قاتلوكم، لأنَّ فتنتهم في الاعتداء عليكم أشد من رد فعلكم بالقتال. إنَّ الفصل بين الاعتداء والدفاع لا لُبس فيه، فالاعتداء مذمومٌ ومحرَّم والله لا يحب المعتدين، أما الدفاع فمشروعٌ وواجب وقد أمر الله تعالى المؤمنين به.

وأمَّا الحديث عن الغِلظة والشدة مع المعتدين، فمنسجم مع الأمر بالقتال، وضرورة إرعاب الأعداء ليرتدعوا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فالغلظة تُظهر جديَّة المؤمنين وتفانيهم لاسترداد حقوقهم، وتمنع تمادي الأعداء، وتجعلهم يعيدون النظر في عدوانهم أو توسعهم فيه. هذه الشدة لا تعبِّر عن نمطٍ في سلوك المؤمنين، فقد ميَّز الله تعالى بين علاقة المؤمنين مع الكافرين المعتدين، وبين علاقة المؤمنين مع بعضهم، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]، أَمَرَهم بالشدة على الأعداء للوصول إلى نتيجة، برفع ظلمهم ومنعهم من تحقيق أهدافهم، وأَمَرَهم بالرحمة فيما بينهم، انسجاماً مع دين الرحمة، ووجوب إيجاد الألفة بين المؤمنين، وتعاضدهم في حياةٍ اجتماعية مستقيمة مستقرة.

الشدة في القتال لاسترداد الحقوق والأرض جهادٌ ومقاومة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة الفتح، من الآية: ٢٩.

مشروعة وليست إرهاباً، أمَّا احتلال الأرض والاعتداء على الآمنين فهو إرهاب. وقد يكون الإرهاب من دولة أو مجموعة أو فرد، ولا يكون الاحتلال والظلم والعدوان إلَّا إرهاباً ولو أُعطي غطاءً دولياً من القوى الكبرى أو مجلس الأمن. ومن الصعب التوصل إلى تعريف دولي واحد للإرهاب والمقاومة، ذلك أنَّ الخلافات الفكرية التي تولِّد الخلافات السياسية من ناحية، وخلافات المصالح الاقتصادية ورغبات السيطرة على الموارد البشرية والمواد الخام والأسواق الاستهلاكية من ناحية أخرى، ستؤدي إلى استمرار الاختلاف في التعريف بحسب موقع المعرِّف، فالمستكبرون والمستعمرون والمحتلون يواجهون من يعارض سياساتهم ومصالحهم بأنَّهم إرهابيون، والمستضعفون وأصحاب الأرض يواجهون المحتلين والمعتدين بأنَّهم مقاومون. فالتوصيف بالإرهاب جزء من الحملة الدعائية للمتسلطين في هذا العالم لإضفاء المشروعية على أعمالهم، بمحاصرة المقاومين ضمن توصيف الإرهاب المذموم، ولا خلاف منطقي بين الجميع في رفض الإرهاب المتمثل بالاعتداء على الآمنين، وتفجير الأسواق والحافلات، وقتل النساء والأطفال، ومع ذلك فإنَّ المستكبرين يستثمرون هذه الصورة الإرهابية القاتمة، ليتهموا المقاومة بأنَّها من سنخيتها، مع أنَّها في كثير من الأحيان من صنع أياديهم وأيادي عملائهم، وذلك تبريراً لعدوانهم وفرض مشاريعهم السياسية على العالم المستضعف.

المصادر

*** القرآن الكريم، كتاب الله الخالد.**

*** ابن أبي طالب، الإمام علي عليه السلام.**

ـ نهج البلاغة، شرح السيد عباس الموسوي، دار الهادي، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.

*** ابن ابي الحديد، ت ٦٥٦هـ.**

ـ شرح نهج البلاغة، دار احياء الكتب العربية، قم، ط٢، ١٩٦٧م.

*** ابن حنبل، الإمام أحمد، ت ٢٤١ هـ.**

ـ مسند أحمد، دار صادر، لبنان.

*** ابن شهرآشوب، ت ٥٨٨هـ**

ـ مناقب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط ١٩٥٦.

*** ابن طاوس، علي بن موسى بن جعفر بن محمد، ت ٦٦٤هـ**

ـ اللهوف في قتلى الطفوف، نشر أنوار الهدى، ط١، ١٤١٧هـ.

*** أبو مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن مسلم الأزدي الغامدي،ت ١٥٧هـ.**

ـ مقتل الحسين عليه السلام،تحقيق الحاج ميرزا الغفاري، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٨هـ.

* **الحرّاني، ابن شعبة، من أعلام القرن الرابع الهجري.**

ـ تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، تحقيق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤٠٤هـ.

* **الحلّي، ابن نما، ت ٦٤٥ هـ.**

ـ مثير الأحزان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٥٠ م.

* **الحميري، ابن هشام، ت ٢١٨هـ.**

ـ السيرة النبوية، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٣م.

* **الخميني، الإمام روح الله، ت ١٩٨٩م.**

ـ الأربعون حديثاً، تعريب محمد الغروي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٤، ١٩٩٢م.

ـ تحرير الوسيلة، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ط٢، ١٣٩٠هـ.

* **الخوارزمي، أبو مؤيد، ت ٥٦٨ هـ.**

ـ مقتل الخوارزمي.

* **الخوئي، المرجع السيد ابو القاسم، ت ١٤١٣هـ.**

ـ منهاج الصالحين، نشر مدينة العلم، قم، ط ٢٨، ١٤١٠هـ.

* **الريشهري، محمدي.**

ـ ميزان الحكمة، دار الحديث، قم، ط١، ١٤١٦ هـ.

* **زين العابدين، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الإمام الرابع من أئمة أهل البيت عليهم السلام.**

ـ الصحيفة السجادية، تحقيق الأبطحي، نشر مؤسسة الإمام المهدي(عج)، قم، ط١، ١٤١١هـ.

* **السيوطي، جلال الدين، ت ٩١١ هـ.**

ـ الدر المنثور، دار الفتح، جدة، ط١، ١٣٦٥ هـ.

*** الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، ت ٣٨١هـ.**

- الأمالي، مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٧هـ.
- ثواب الاعمال، منشورات الرضى، قم، ط٢، ١٣٦٨هـ.ش.
- معاني الأخبار، انتشارات اسلامي، ١٣٦١هـ. ش.
- من لا يحضره الفقيه، جماعة المدرسين، قم، ط٢، ١٤٠٤هـ.

*** الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، ت ٣٦٠هـ.**

- المجمع الكبير، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.

*** الطبرسي، الشيخ أمين السلام أبو علي الفضل بن الحسن، ت٥٦٠هـ.**

- مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

*** الطبرسي، رضي الدين أبي الحسن بن الفضل، ت ٥٤٨هـ.**

- مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ط٦، ١٩٧٢.

*** الطبري، ابن جرير، ت ٣١٠ هـ.**

- تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

*** الطبري، الشيخ أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم، من أعلام القرن الرابع الهجري.**

- دلائل الإمامة، مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

*** العاملي، الشيخ محمد بن الحسن الحر.**

- وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

*** قاسم، نعيم، معاصر.**

- حقوق الزوج والزوجة، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط٧، ٢٠١٠م.
- سبيلك الى مكارم الاخلاق، دار الهادي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٨م.
- عاشوراء مدد وحياة، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠١٠م.
- مجتمع المقاومة، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.

*** الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب بن اسحاق، ت ٣٢٩هـ.**

- الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م).

*** الليثي، علي بن محمد الواسطي، من أعلام القرن السادس الهجري.**

- عيون الحكم والمواعظ، تحقيق حسين البيرجندي، دار الحديث، قم، ط١، ١٤١٨هـ.

*** المجلسي، العلّامة محمد باقر، ت ١١١١هـ.**

- بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

*** النسائي، ابو عبد الرحمن احمد، ت ٣٠٣.**

- السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

*** النعمان المغربي، القاضي ابو حنيفة، ت ٣٦٣هـ.**

- دعائم الاسلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٣م .

*** النوري، الحاج ميرزا حسين.**

- مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٩٨٨م.

*** النيسابوري، مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١هـ.**

- صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت.

*** الهندي، علاء الدين علي المتقي، ت ٩٧٥هـ.**

- كنز العمال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

صدر للمؤلف

* معالم للحياة من نهج الأمير عليه السلام.
* عاشوراء مددٌ وحياة (طبعة رابعة).

سلسلة شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام (سبعة أجزاء):

* ١ ـ حقوق الجوارح (طبعة سادسة)
* ٢ ـ حقوق الوالدين والولد (طبعة سابعة).
* ٣ ـ حقوق الأفعال (طبعة خامسة).
* ٤ ـ حقوق الزوج والزوجة (طبعة سابعة).
* ٥ ـ حقوق المعلم والمتعلم (طبعة خامسة).
* ٦ ـ الحقوق الثلاثة (طبعة رابعة).
* ٧ ـ حقوق الناس (طبعة رابعة).
* رسالة الحقوق بأجزائها السبعة مجموعة في علبة فنية.
* حزب الله: المنهج.. التجربة.. المستقبل (طبعة سابعة).
* سبيلك إلى مكارم الأخلاق (طبعة رابعة).
* قصتي مع الحجاب (طبعة سابعة).
* الشباب شُعلة تحرقُ أو تضيء (طبعة ثالثة).
* المهدي المخلص (طبعة ثالثة).
* مجتمع المقاومة (إرادة الشهادة وصناعة الإنتصار) (طبعة ثانية).
* سبيل الله
* HIZBULLAH the story from within - SAQI - LONDON

تمَّ طبع كتاب حزب الله بسبع لغات: العربية، والإنكليزية، والفارسية، والفرنسية، والأندونيسية، والتركية، والأوردية. (لمعرفة دور النشر مراجعة الموقع)

تلفاكس: ١ـ ٥٤٥٨٠٠/ ٠١ (مفتاح ٠٠٩٦١)

HTTP: //WWW.naimkassem.net.Email:info@naimkassem.net